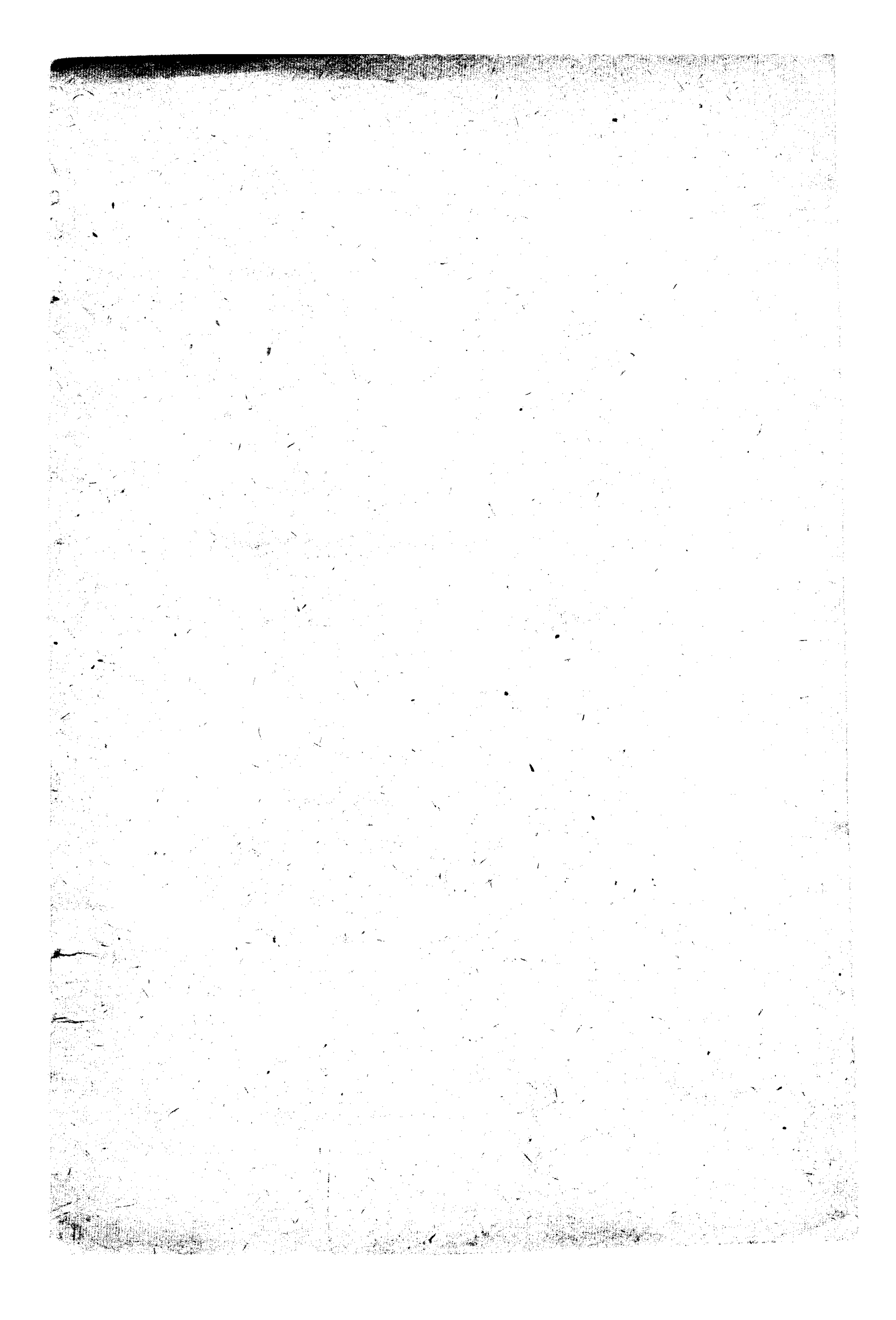
دكتور
عبد الفتاح عاشور
أستاذ التفسير وعلوم القرآن — المساعد
بجامعة الأزهر، والجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

الوصايا العشر

دراسة - مقارنة - لآيات من أواخر سورة الأنعام

الطبعة الأولى
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

مطبعة الحضارة العربية - الفجالة
ت: ٩٣٤١١٧



بسم الله الرحمن الرحيم

الوصايا العشر

قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم :

١ — ألا تشركوا به شيئاً .

٢ — وبالوالدين إحساناً .

٣ — ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم .

٤ — ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

٥ — ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .

٦ — ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده .

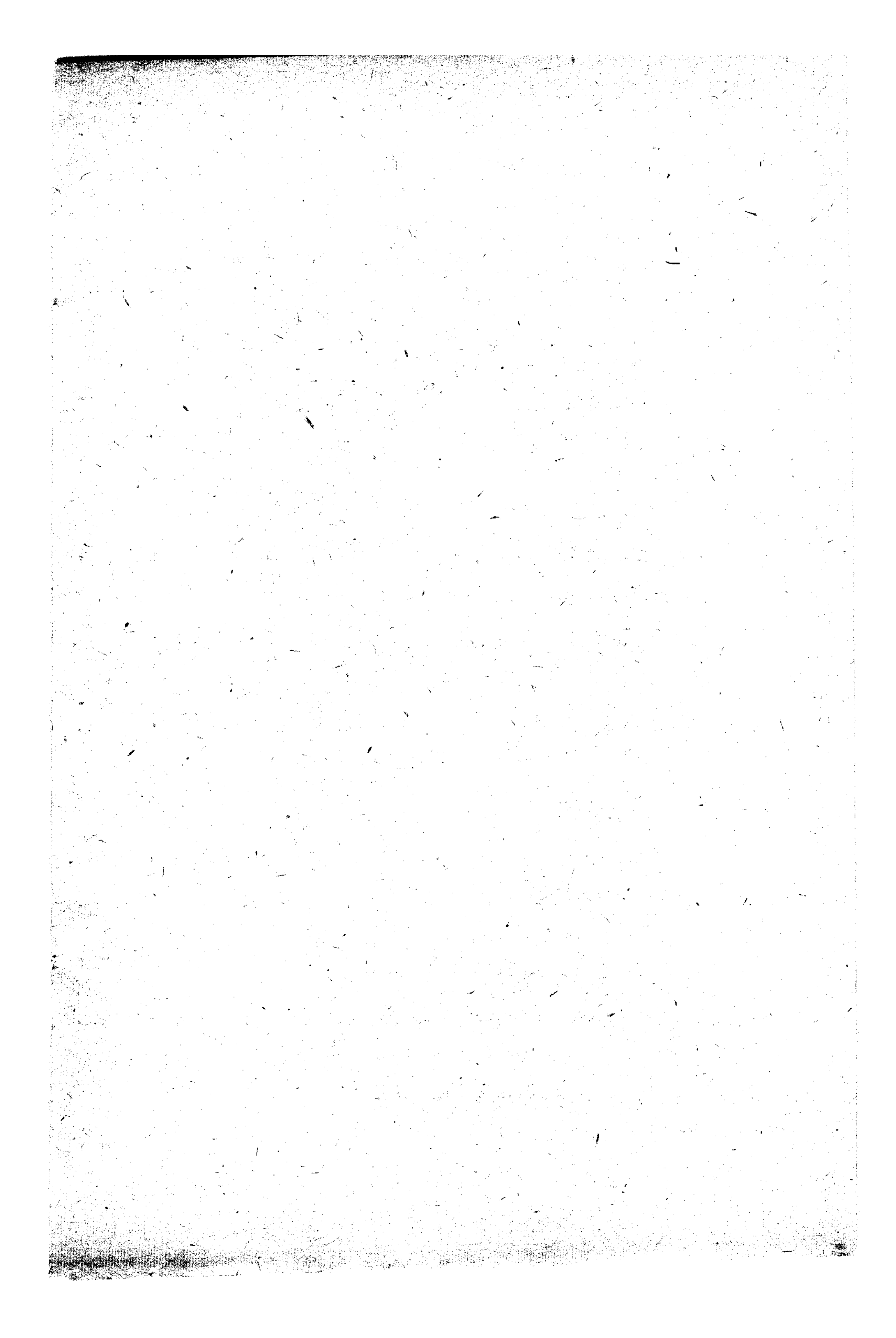
٧ — وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها .

٨ — وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى .

٩ — وبعهد الله أوفوا .
ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون .

١٠ — وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .
ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

« صدق الله العظيم »



بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

حمداً لله وصلاة وسلاماً على رسوله وبعد :

فهذه وصايا سورة الأنعام أقدمها مثالا حيا لعظمة كتاب الله الخالد وما يحمله من أسرار وأنوار . .

وإذا كان العلماء قديما قد تناولوا هذا الكتاب الكريم بالشرح والتحليل فكشفوا عن الكثير من حكمه وعظيم هدايته فقد بقي هذا القرآن — مع ذلك — بحراً زاخراً يموج بالحكم الغالية والهداية الربانية العالية ويرشد الإنسانية إلى الطريق الواضح الذي لا عوج فيه .

ولقد عشت مع سورة الأنعام ووصاياها لحظات مشرقة أتجول في رياض كتب التفسير واللغة وما يذكر من الوصايا في كثير من الشرائع وما يفتخر به كل قوم من مبادىء وقيم وحضارات فأجد — حين أجلس إلى كتاب الله أن ما أتلوه لا يعدله شيء إنما هو الرفعة في سموها والعظمة في أعلى منزلتها . وفرق بين وصايا البشر وصايا خالق القوى والقدر . لقد وجدت أنها جامعة للدين كله وأنها تصلح شأن الحياة كله وأن عالمنا اليوم في حاجة إلى بعث جديد تعود فيه روح القرآن كما قال الحق سبحانه : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى الصراط مستقيم[1] .

تعود إليه هذه الروح فيتحرك مندفعاً في طريق الله يعمر الأرض بالحق

---

(١) الشورى ٤٢/٥٢ .

والخير والعدل ويؤدى وظيفة الاستخلاف فى الأرض كما أراد الله له أن يكون : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون[1] » .

وفى تلك الحقبة من تاريخ البشرية تتصارع المذاهب السياسية وتسيطر على العالم نعرات قومية ويعيش الناس فى جاهلية « كل حزب بما لديهم فرحون[2] » لذا آن لمبادئنا السامية التى غرستها يد الإله القادر وروتها دماء الشهداء من أصحاب رسول الله والتى استنشقت الدنيا عبيرها فترة من عمر الزمن فاستشعرت هدوء النفس وراحة القلب والسكينة والسعادة . مبادئنا هذه آن لها أن تدخل معركة الحياة بأسلوب جديد وعرض يضيف إلى الصرح الذى بناه السابقون لبنة تكشف عن جمال هذا الصرح وتقدمه لعالمنا الحائر فى متاهات الضلال فعساه أن يأوى إلى ظله الرحيب فيلتقط أنفاسه اللاهثة ويروى ظمأه المحرق من بحر هذا الفيض الزاخر بالرحمات والبركات .

أخيراً ...

فهذه الوصايا العشر تحملها آيات ثلاث من سورة الأنعام ، ودراسة الآيات الثلاث منفصلة عن أصلها لا يتناسب مع جلال الموضوع ودقته لذلك سنحاول أن ندرسها مع مجموع السورة وما تهدف إليه فى عرض مبسط ومختصر ترتبط فيه الوصايا بأصلها القريب والبعيد فى السورة وحينئذ نستعرض كل وصية فنرى فيها أقوال السابقين وما تهدف إليه وأثرها فى بناء المجتمع الإنسانى وطريقة التربية الإسلامية فى الأخذ بقياد النفوس إلى خالقها وكيف صنعت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

والآيات الثلاث — بعد ذلك — برهان عملى على ما فى هذا القرآن من

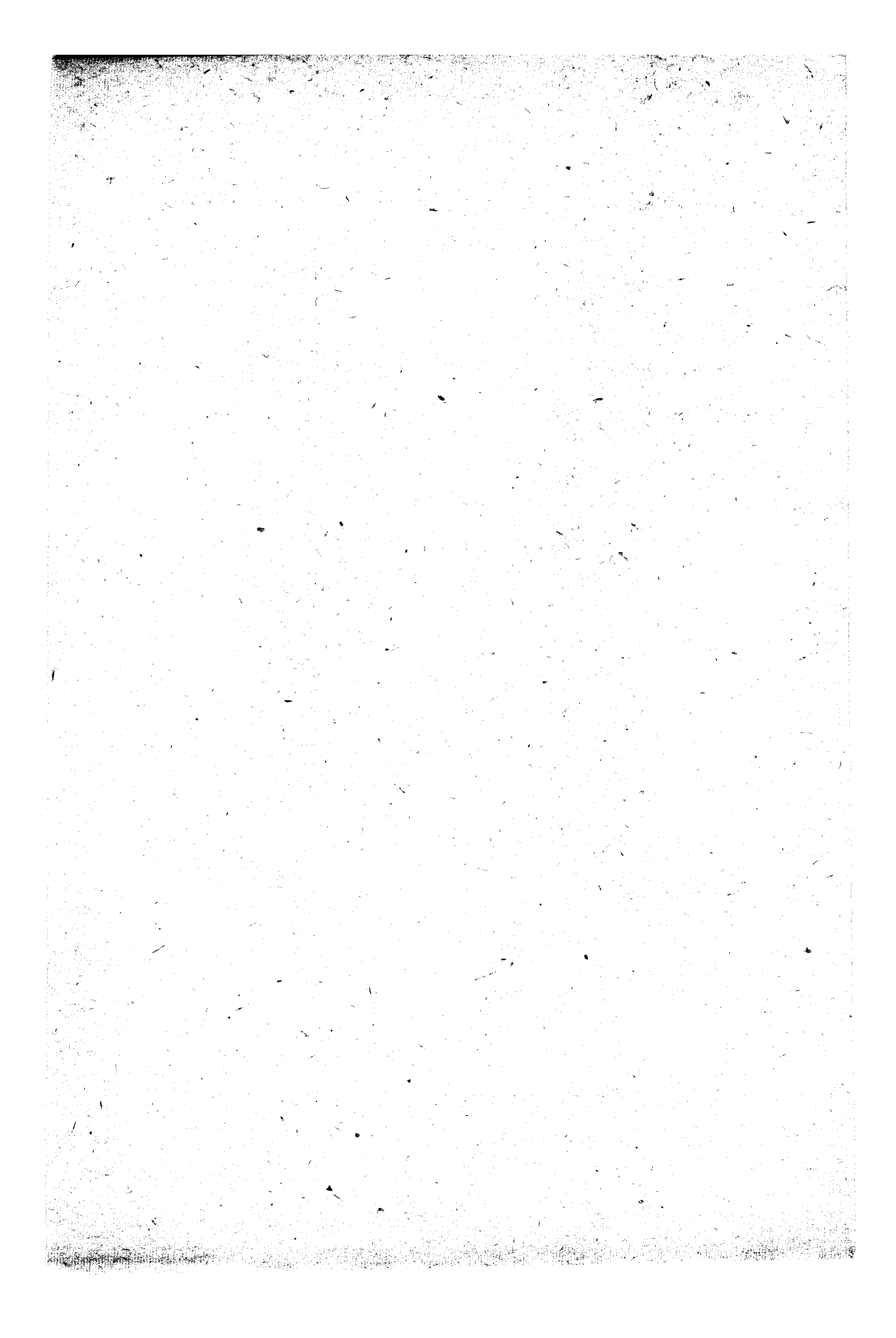
---

(١) البقرة ٢/٣٠ (٢) المؤمنون ٢٣/٥٣

رفعة وارتقاء وأنه باق ببقاء الزمن يطوف حوله العلماء والباحثون ، وما انقضت عجائبه ولا ذهبت جدته ورونقه وبهاؤه — وإذا كان هذا شأن آيات ثلاث من هذا الدستور الخالد فما بالنا بالقرآن كله وما يحتويه من أسرار البقاء والخلود . .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه فانه نعم المولى ونعم النصير .

عبد الفتاح عاشور



الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الوصية التاسعة :

الوصية العاشرة :

صفحة

سورة الأنعام: والوصايا العشر:

سورة الأنعام مكية — وهى من السور التي جمعت منهج القرآن فى مواجهة الحياة . وكيف استطاع هذا القرآن أن يخرج جيلا متميزاً فى خصائصه عجيباً فى تكوينه قويا فى عقيدته عظيما فى خلقه رغم ما أحاطه من ألوان المحن وما نزل به من أنواع التعذيب والتشريد والتنكيل .

وقد اقتصرت السور المكية على هذا الجانب من حياة الانسان المسلم فغرست فيه عقيدة التوحيد وربته على الخلق الطاهر الكريم لأنه لم يكن للمسلمين مجتمع ذو قيادة تنفذ أحكامه وتفرض شريعته إنما كانوا أفراداً يطاردهم الكفر ويسومهم سوء العذاب .

والسورة لهذا تبحث عن ينابيع العقيدة لتشبع منها حاجات النفوس والقلوب فتطوف فى عوالم السموات والأرض بما فيها من دلائل القدرة وعظيم الخلق وتضع الأيدى على مفاتيح الحق وأسرار الغيب وتصل بذلك إلى ما أراده منزل هذا القرآن لخليفته من سمو فى الفكرة وارتقاء فى الشعور وارتباط وثيق بين حاضره وماضيه ومستقبله .

* * *

وتبدأ السورة بالحمد لله لأنه مستحق لهذا الحمد :

١ — فهو الذى خلق السموات والأرض .

٢ — وجعل الظلمات والنور .

٣ — وهو الذى خلقكم من طين ثم قدر أجلا للموت وأجلا للبعث .

٤ — وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون .

ومع كل هذه الدلائل والبراهين فالذين كفروا يعدلون بالله غيره ويشركون معه آلهة أخرى ويجادلون فى البعث ويعرضون عن آيات الله وما دروا أن الإله القادر لهم بالمرصاد وأنه أهلك من هم أشد منهم قوة وأعظم بأساً وأنشأ من

من بعد هؤلاء المهلكين قرناً آخر فما خربت الأرض بذهابهم .

ولم لا ينزل بهم العذاب وهم متعنتون لا يطلبون الهداية : إنهم لا يصدقون ما معك من الوحى ولو نزل مكتوبا فى قرطاس ولمسوه بأيديهم فسيقولون : إن هذا إلا سحر مبين . . وإنهم يطلبون المحال يطلبون نزول الملك مصدقا لك فيما تقول — والملك إنما ينزل — حينئذ لتدميرهم وإهلاكهم . . والملك إذا نزل سيكون فى صورة رجل والاشكال — إذن — قائم والعناد لا يفيد — وإذا كان مطلبهم هـــذا استهزاء فلقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون . ومن واجب هؤلاء أن توجه أنظارهم إلى السير فى الأرض ليعتبروا بما آل إليه حال المكذبين وأن تلفتهم إلى عظمة القدرة وجلال الإله الخالق : «قل لمن مافى السموات والأرض ؟ قل لله كتب على نفسه الرحمة » ومن رحمتـــه بهم أنه لم يعاجلهم بالعقوبة إنما يؤخرهم ليوم القيامة الذى يخسر فيه هؤلاء أنفسهم وليس بعد خسارة أنفسهم شىء يخسرونه ؟ !

والله سبحانه مالك المكان ومالك الزمان وما فى المكان والزمان : « وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم » .

وعن طريق الإيحاء يرهبهم ويخوفهم ويدلهم على الإله الحق فى هذا الوجود: فيأمر رسوله أن يسألهم : قل أغير الله أتخذ وليا ؟ فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » ومن كان هذا شأنه وجب الاستسلام له وتوحيده فلا يشرك به شىء . وعصيان هذا الإله خطر يجب أن يخاف منه رسول الله ﷺ . ويوم القيامة وما فيه من أهوال يوم شديد رهيب « من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز العظيم » .

والخوف — إذن — من الله وحده فهو الضار والنافع ولا يمتلك أحد سواه كشف ضر أو جلب نفع فهو الإله المتصرف القادر القاهر فوق عباده فهو الحكمة التى تدبر والخبرة التى تصرف كل ما فى هذا العالم ومن فيه لا يغيب عنها شىء ولا يعجزها شىء .

وتبـدأ السورة جولة أخرى فى ميـدان التوحيد : عن طريق الإشهاد ويختار الرسول عليه السلام . ربه شهيداً بينه وبين المشركين .. وإذا شهدوا أن مع الله آلهة أخرى فهو مكلف أن لا يشهد وإنما يبين الحقيقة الجلية فى غير مواربه : قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون . فشهادة الله أولا وشهادة الرسول ثانياً وتأتى شهادة أهل الكتاب الذين يعرفون هذا الرسول بنعته وصفته فى كتبهم كما يعرفون أبناءهم بملامحهم وسيماهم . تلك الشهادات مجتمعة على وحدانية الله وصدق رسوله ومن لم يؤمن بهذا فقد خسر نفسه وافترى على الله الكذب إذا عدم الايمان مع وضوح الدليل والتكذيب بآيات الله مع نصاعة الحجة ظلم لا يعدله ظلم .وسوف يحشر الله هؤلاء الظالمين جميعاً فيسألهم هذا السؤال المخزى عن شركائهم : أين هم ؟ فيحلفون أنهم ما كانوا مشركين . وهذا موقف يستدعى العجب فلننظر مع رسولنا الحبيب كذبهم على أنفسهم وغياب آلهتهم عنهم ! ! !

ويعود القرآن ليبين حالهم فى الدنيا وهم يستمعون إلى الرسول ولكن الله أعمى قلوبهم وأصم آذانهم لسوء عمـلهم فهم لذلك لا يؤمنون أبداً ويجادلونك دائماً ويدعون أن أنزل عليك أساطير الأولين بل ويبعدون أنفسهم عن طريق الله فيهلكونها وسوف يتحسرون على هذا العمر الضائع فى الضلال يوم يراهم وهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين وهنا يظهر لهم ما كانوا يخفون من قبل وهم كاذبون ادعائهم فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وقضية أخرى يراها رسولنا كما يراها كل إنسان فى مشهد ملموس كأنه حاضر لدينا لا أنه سيكون : إنكار الكفار للبعث وادعاؤهم أن الدنيا هى حياتهم . والقرآن لا يناقشهم فى صحة هذا القول إنما يرسم صورة لخزيهم حين يتولى الله استجوابهم ، أليس هذا بالحق ؟ ؟ ويكون جوابهم : بلى وربنا فيكون القرار : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون .. وهنا تكون الخسارة أيضاً ظاهرة فحالهم وهم يتحسرون على تفريطهم ويحملون ذنوبهم على ظهورهم تدعو إلى الخزى والأسف . وهل الحياة الدنيا إلا لعب ولهو حين تنفصل عن الآخرة وتوضع فى ميزانها الصحيح ؟ ولكن الآخرة خير للمتقين . وليتنا

نفعل هذا الأمر فهو يحتاج إلى تعقل وموازنة ليكون الاختيار الصحيح .

ثم يلتفت السياق بعد هذه الجولات ليسلى رسول الله ﷺ : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون . فانهم لا يكذبونك ولـكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ويطمئنه إلى نصره فكثير من الرسل قد كذبت ولـكنهم صبروا على الإيذاء حتى أتاهم نصر الله . وهـذه سنته فى خلقه لا تتبدل ولا تتغير . أما أنت فلا تحزن عليهم فما عليك إلا البلاغ .

وهنا يشتد الله فى عتابه لرسوله لحزنه على عدم هداية قومه فيقول له : « وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تـكون من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون » فالاستجابة دليل حياة والإعراض دليل موت . وما يحجب إنسان نفسه عن الإيمان إلا وفى نفسه من الموت شيء وفى كيانه من الفساد صورة . وها هم الـكفار يطلبون معجزة خارقة وهم فى الواقع عمي . فهذا القرآن جاء ليخاطب الادراك البشرى بعد أن بلغ نضجه وكماله . وهل هناك آية أعظم من تلك الآيات المبثوثة فى الـكون: تلك الدواب وهذه الطيور : كل جنس منها عالم مستقل يسير بنظام رتب ما فرط الله فيه من شيء ?? .

ومع هذا الوضوح فالـكافرون صم وبكم يعيشون فى الظلمات لإبعادهم أنفسهم عن مصدر النور وتلك إرادة الله « من يشأ يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم »

ثم هؤلاء الـكفار ماذا يصنعون إذا وقع بهم العذاب أو جاءتهم الساعة ?? هل يشركون بالله شيئاً ?? إنهم يدعونه وحده فيكشف عنهم الضر بمشيئته وتلك الصورة تتـكرر مع كل رسول يذكر قومه ربهم فى حالة البأساء وينسونه فى حالة النعماء فيقطع الله دابرهم ويطهر الأرض من رجس الظالمين . وليتصور كل مكذب حاله وقد سلب الله منه السمع والبصر وختم على قلبه . فهل يستطيع أحد رد شيء من ذلك عليه ?? لا يستطيع هذا إلا الإله القادر . ومع هذا

البيان الجلى الواضح فالمشركون يعرضون عن الحق ويأبونه . فلينتظروا مرة أخرى لحالهم وقد أتاهم عذاب الله بغتة أو جهرة فهل يهلك إلا القوم الظالمون؟

هكذا قضت سنة الله : يرسل الرسل فمن آمن برسله فلا يخاف ولا يحزن ومن كذب نزل به العذاب لفسقه وخروجه عن دين الله .

وهذه دعوة الاسلام وهذا رسولها لا تبتغي مطمعاً ولا تدخل إلى العقول من باب الاغراء والخوارق إنما تخاطب الوجدانية وتستولى على القلوب بما لها من قوة الحجة ومتانة البرهان . وما رسول الله ﷺ إلا بشير يتبع الوحى الإلهى وليس لديه خزائن الأموال يوزع العطايا على الأتباع ولا يملك مفاتح الغيب ليدل أصحابه على ما يبتغون ولا هو ملك كما يطلبون . فمن فاء إلى هذا الرسول الإنسان من فقد فاء إلى هداية الله وخرج من الظلام والعمى : « هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ ؟

والرسول — عليه السلام — مأمور من ربه أن يرسى قواعد المساواة والقيم الاسلامية الصحيحة .. فليس من حقه أن يطرد فقيراً من مجلسه ولا أن يتغاضى منه .. لأن الدعوة ليست للوجاهة والمال .. إنما هى لصاحب القلب الخائف من موقف الحساب .. ومهما تقول المشركون فى الضعفاء من المسلمين فالله أعلم بالشاكرين . .

ثم يفتح الله باب رحمته لكل تائب حتي يتبين رسولنا الكريم من فى طبعه ميل للتوبة والرجوع إلى الله ومن يسلك طريق الظلم والاجرام ...

فاذا قدمت الرسالة بهـــذه الصورة فليبين لهم البون الشاسع بين طريقه وطريقهم فى غير مجاملة ولا مواربة فهو مأمور أن يعبد الله وحدة ولا يتبع أهواءهم فهو على الطريق الواضح ولكنهم مكذبون .. يطلبون العذاب استهزاء وليس هذا لرسول الله .. فالحكم كله لله هو الذى يفصل فى هذه القضية . .
ولو كان الأمر بيد الرسول وجاد به لوقع بهم العذاب .. فالعذاب دائماً يحيق بالظالمين . .

وتمضى السورة ترسم صورة لآيات الله التي غفل عنها المكذبون : إنها علم الله وقدرته . . علم الله المحيط بما فى البر والبحر . . فى سقوط الورقة اليابسة والحبة فى ظلمات الأرض . . فى كل رطب ويابس . . لا يغيب من ذلك شيء عن علم الله . . وهؤلاء المكذبون هم أيضاً فى قبضة الله حين ينامون وحين يستيقظون.. وإذن فحياتهم ومماتهم وحركاتهم وأنفاسهم محسوبة وهم لا يعلمون إنها الرقابة المحكمة فى ظل قدرة الله القاهرة . فعين الله حارسة وحفظته يعدون الأنفاس إلي أن يحين الأجل فيرد الظالمون إلي مولاهم الحق : من له الحكم وحده فيحاسبهم وهو أسرع الحاسبين . . على أن الكرب ليس دائماً إلى يوم الحشر : فهم يجدونه فى حياتهم الدنيا حين يصادفون الهول فى ظلمات البر والبحر فلا يجدون لهم ملجأ إلا الله فينجيهم ولكنهم يعودون لما كانوا فيه . . وعليهم أن يعلموا أن الله الذي ينجيهم من الكرب قادر أن يعيدهم إلى ألوان منه حين يشاء : فيبعث عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فيكون وقعه أشد . أو يجعلهم شيعاً وأحزاباً : يصب كل فريق عذابه على الآخر فتأكل الجماعة بعضها بعضاً .. فانظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ؟؟ !!

أما أنت يا رسول الله فاذا رأيت هؤلاء الذين يخوضون فى آيات الله فأعرض عنهم ولا تجلس فى مجالسهم ودعهم فى لعبهم ولهوهم وامض لمهمتك : ذكر بالقرآن فعسي النفوس أن تؤوب إلى الله قبل أن تقع فى العذاب جزاء كفرها وعنادها .. نعم — إنه العذاب الأليم والضلال المبين ، وكيف يرد من اهتدى إلي الله إلى الشرك القديم فيصبح موزع الخاطر لا يدرى له طريقاً ولا يعرف له اتجاهاً ؟؟ فتمسك يا رسول الله بهذا الهدى وأعلنها لهم : « إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » . . وأمرنا بأن نقيم الصلاة وأن نراقب الله فى كل حال وأننا سنحشر إليه لذلك نخاف منه . . وكيف لا نتمسك بالحق وربنا خلق السموات والأرض بالحق وقوله الحق والملك كله له يوم ينفخ فى الصور . . وهو عالم الغيب والشهادة فحكمه عادل وجزاؤه كامل وهو الحكيم الخبير يصرف الأمور بحكمته ويقدرها بخبرته على وجه اليقين .

وتلك جولة جديدة فى ميـــدان العقيدة عن طريق القصة : قصة ابراهيم عليه السلام ..

فهو يدرك بفطرته أن الأصنام ليست آلهة فينكر على أبيه وقومه عبادتها. ويطلعه الله على الحقيقة الكاملة فى ملكوت السموات والأرض فيظل ليـــله ساهراً مشغولا بأمر العقيدة .

يرى كوكباً فيقول : هذا ربى .. ولكن الكوكب يغيب .. والإله لا يغيب ؟؟

ويرى القمر وكأنه لم يره من قبل فيقول : هذا ربى ولكن القمر — أيضاً — يغيب .. فيتجه إلي خالقه الذى يحثه فى كيانه : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ! !

وتبدو الشمس لعينه أكبر الأجرام وأقواها فيقول : هذا ربى .. هذا أكبر .. ولكن هذا الإله يأفل ويتوارى ؟؟ !!

وهنا يتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والإله الحق .. هنا يجد ابراهيم إلهه غير منظور ولا محسوس لأنه وجود مطلق .. إنه يجـده خالقا لكل ما تراه العين ولكل مايدركه الحس مبدعا للسموات والأرض وما فيها ومن فيهما من مدرك ومحسوس .. وهنا يعلن براءته من آلهتهم المزيفة : ياقوم إنى برىء مما تشركون ويطمئن إبراهيم إلى خالقه ويدحض حجج قومه فهو على الحق وهم على الباطل .. وكيف يخاف آلهتهم ولايخافون هم من عاقبة إشراكهم .. وأى الفريقين أحق بالأمن .. هنا يأتى القرار من صاحب الأمر الأخير : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ..

وتعقيب على هـذا الحوار وذلك القرار الإلهى يأتى قول الحق سبحانه : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم .. » نعم رفع الله درجة ابراهيم على قومه بعقيدته النقية وإيمانه الصحيح ووهب له ذرية صالحة فأضحى أبا الأنبياء : وهب الله له إسحاق ويعقوب

فكان من نسله عليه السلام هذا الرهط الكريم : داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ولوطا .. ومن قبل إبراهيم كان نوحا عليه السلام .. كل هؤلاء جميعاً هداهم الله واختارهم لحمل رسالته .. ولو انحرف واحد منهم عن الطريق لحبط عمله .. أما قومك يا محمد فلا قيمة لكفرهم فان الله وكل هذه الرسالة إلى قوم يضحون فى سبيلها بكل غال ونفيس وعليك أن تسير على ضوء مشاعلهم فأنت لا تطلب أجراً من المشركين على هذه الهداية وليست رسالتك لهذا الجيل من العرب إنما رسالتك ذكري للعالمين .. واليهود كالمشركين لا يعرفون قدر الله وينكرون نزول الكتب على البشر فاذن : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى يظهرون منه ما فيه منفعتهم ويخفون منه كثيراً وقد تعلموا منه أشياء كثيرة لم يعلموها من قبل .. نعم من أنزل هذا ؟ إنه الله .. فدعك — يا نبي الله ، منهم وذرهم فى خوضهم يلعبون .. فهذا الكتاب الذي نزل عليك فيه البركات والرحمات مصدق لما بين يديه .. أنزلناه عليك لتبلغه لأهل مكة والناس أجمعين فمن فى طبعهم استعداد للهدي آمنوا وحافظوا على أهم شعيرة فى الإسلام : الصلاة .

وهذا مشهد للظالمين المكذبين الذين يفترون على الله الكذب ويدعون نزول الوحى عليه أو يقول الواحد منهم : « سأنزل مثل ما أنزل الله » مشهدهم معروض على الأبصار وهم فى غمرات الموت والملائكة تطلب أرواحهم وتوبخهم لأنهم اليوم يستحقون الهوان لكذبهم على ربهم واستكبارهم عن آياته ولقد جاءوا إلى الله فرادى تاركين ما وراءهم وليس معهم شفيع ولا نصير من الآلهة المدعاة فقد انقطع الحبل وغاب عنهم وهمهم وزعمهم فلا نجاة لهم اليوم من الله .

ولو عقل هؤلاء الكافرون وتدبروا آيات الله من حولهم لآمنوا قبل أن يحل بهم العذاب . لذلك تأخذنا السورة فى رحلة تأملية معرب هذا الكون لتكشف لنا فيها أسرار الله التي لا تعدلها معجزات وخوارق يطلبها هؤلاء الحمقى .. فان هذه المشاهد المألوفة تحمل آلاف الخوارق والدلائل على عجيب قدرة الله : فهو فالق الحبة عن نبتة نامية والنواة عن شجرة صاعدة وهو سبحانه يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . والمبدع الذي يخلق الحياة

ويحولها من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة . ذلكم الله فكيف تصرفون عنه وعن آياته وهي ظاهرة للمدارك واضحة للعيون .

إنه فالق الإصباح عن فحمة الليل بالضياء وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

والله هو الذى جعل هذه النجوم على كثرتها ونظامها فى خدمة البشر يهتدون بها فى ظلمات البر والبحر . وهذا الاهتداء يحتاج إلى علم فيجيء التعقيب «قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون» .

والله هو الذى خلقكم هذا الخلق البديع من نفس موحدة الكنة فى الذكر والأنثى : فنفس هى مستودع للخلية فى صلب الرجل ونفس هى مستقرها فى رحم الأنثى ثم تأخذ الحياة فى النمو والانتشار فاذا أجناس وألوان ولغات وشعوب : « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » .

والله هو الذى أنزل من السماء ماء فكان به قوام كل نبات وكل حياة فلننظر إلى ما فى هذا كله من آيات ودلائل . « إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

وبعد هذه الصفحة المشرقة من كتاب الكون يرسم القرآن صورة لشرك المشركين فاذا هو سخف تشمئز منه القلوب : فهم قد جعلوا لله شركاء من الجن والله قد خلق الجن . وافتروا على الله أن له بنين وبنات : والله منزه عما وصفه به هؤلاء . وكيف لبديع السموات والأرض أن يكون له بنين وبنات وليست له زوجة ؟ كيف هذا وهو الذى خلق كل شيء فلا يحتاج لشيء . . إنه هو رب الخلق الحقيقى لا إله إلا هو فتجب عبادته فهو جدير بالعبادة وأمر كل شيء إليه . . إنه لا تحيط به العقول ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

وهذا هو الطريق كما أوضحه رسول الله فمن سار فيه فلنفسه ومن ضل عنه فقد خسر نفسه وليس رسول الله على هؤلاء بحفيظ إنما عليه أن يتبع ما أوحي إليه من ربه وأن يعرض عن المشركين وأن يترك ادعاءهم بأنك درست هذا القرآن وجئت به من كتب السابقين فلو شـاء الله ما أشركوا وما أنت عليهم بوكيل .

والآيات توجهنا إلى لفتة نفسية فى معاملة المشركين وذلك ألا نسبهم اتقاء أن يسبوا الله عدوانا وهم لا يعلمون شفاعة ما يرتكبون . . وختاماً لهذه الجولة يبين الله عبث الكافرين حين يقسمون بالله إن جاءتهم آية ليؤمنن بها وهم كاذبون فى ذلك . فالآيات عند الله وهذه كلها تعلات وإعنات « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشـاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » فلا يعرفون أنهم عن الإيمـان محجوبون . نعم إنها مشيئة الله يجعل لكل نبى عدواً من شياطين الإنس والجن يزخرفون القول الباطل لبعضهم فيغترون بما يقولون . ومن واجب الرسول أن يدعهم وافتراءهم فانهم منحرفون « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » .

والآن تبدأ السورة وإلى أواخرها فى عرض قضية هامة من قضايا هذا الدين بعد أن مهدت لها بتقرير سلطان الله المطلق فيما يقع فى هذا العالم صغيره وكبيره . هذه القضية هى قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح . وبالتالى منَ الذى يمتلك الحكم على شيء ما بأنه حلال أو حرام ؟ ؟

وحين تعرض سورة الأنعام هذه القضية وتستغرق كل هذا النقاش تقرر مبدأ ولايهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة يؤكل منها أو لا يؤكل او أن يكون أمر دولة تقام أو نظام مجتمع يوضع فهذه كتلك من ناحية المبدأ وهذه كتلك تعنى الاعتراف بألوهية الله وحده أو رفض هذه الألوهية .

والآيات تبدأ فتقرر جهة الحاكمية فى أمر العباد كله : أفغير الله ابتغى

حكماً ؟ ؟ وهل العباد فى حاجة إلى مصدر آخر بعد أن نزل هذا الكتاب محتوياً على المبادىء الأساسية التى يقوم عليها نظام الحياة جملة . وأهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من ربك بالحق ومايزالون من أجل علمهم بهذا كله يحاربون هذا الدين ويحاربون هذا الكتاب حرباً لا تهدأ حتي يحولوا مجرى أحكامه إلى أحكام البشر . وهنا يلتفت السياق إلى رسول الله ﷺ قائلا : « فلا تكونن من الممترين . وهو توجيه يدل على ضخامة ما كان يلقاه عليه السلام والجماعة المسلمة معه من الكيد والعنت والتكذيب والجحود . نعم : مأمور بأن لا يجادل المشركين فقد تمت كلمة الله صدقاً : فيما قال وعدلا : فيما شرع وحكم وهو السميع لما يقوله عباده العليم بما يصلح لهم وما يصلحهم . أما أهل الأرض فيتبعون الظن والأوهام ومطاوعتهم فى ظنهم إنحراف عن طريق الله الذى يعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

وهذا مثال من واقع حياة الجاهلية : الذبائح . سن الله فيها قانوناً . فيجب أن تدخل تحت القاعدة الكلية : الحياة كلها لله . فلا أكل إلا مما ذكر عليه اسم الله وإلا فهو الخروج عن هذا الدين . وكيف لا نأكل كما أمر الله وقد فصل لنا الحلال والحرام ؟ ولكن الأهواء الجاهلية تعتدى على سلطان الله وتشرع مالم يأذن به الله . لذلك تؤكد الآيات مرة ومرة : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم إن أطعتموهم إنكم لمشركون .

فمطاوعتهم فى هذه الجزئية الصغيرة إشراك بالله وهدم لقاعدة الاسلام الكبرى : [الحياة لله وباسم الله تسير] أما هؤلاء المتعنتون المجادلون فحسبهم أنهم يعيشون فى الظلمات . . فى الموت والجهل ويخيل إليهم حسن هذا العمل فالفرق بينكم وبينهم واضح « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » .

إن الله قد جرت سنته أن يجعل فى كل قرية نفراً من أكابر المجرمين يقفون

موقف العداء من دين الله ولكن نهاية الكبر خاسرة.. والمؤمنون لايخوضون المعركة وحدهم فالله وليهم فيها وهو يرد على الكائدين كيدهم : وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ..

وهــذه صورة لحقدهم وكيدهم : حين يعقلون إيمانهم على أن يؤتوا مثل ما أوتى رسل الله .. وهذا غباء فالله أعلم حيث يجعل رسالته .. أما المجرمون فلهم الخزي والعذاب الشديد عند الله بما كانوا يمكرون .

وإنها لإرادة الله التي يسرت كلا لما خلق له : فمن يرد الله هدايته يسترح في الإسلام وينشرح له صدره ومن يغلق فطرته عن النور يجعل الله صدره ضيقاً حرجا كأنما يصعد في السماء .. وهكذا يجعل الله العذاب والانتكاس والضيق على الذين لا يؤمنون ..

وهذا حديث الإيمان يسير متتابعاً من قضية الذبائح إلى ما يعقبها من تقريرات تؤكدها .. وهذا صراط ربك مستقيما ، وضح الآيات وفصلها لمن كان له قلب ذاكر لا يغفل ، والذين يتذكرون « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » ..

أما أعداء الله فالسورة تعرضهم وسط حلقتين :

١ — الذبائح ..

٢ — النذور من الأنعام والأولاد .. تعرضهم والله يقول للجن ، قد استكثرتم من التابعين لكم من الإنس .. ويجيب المغرورون بوسوسة الشياطين ربنا استمتع بعضنا ببعض .. فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان واستمرأ ذلك إلى أن جاء أجلهم .. وإذن فالنار مثواهم خالدين فيها إلا ماشاء الله إن ربك حكيم عليم ..

وهكذا يكون الولاء والاتفاق في الوجهة والهدف بين الظالمين لأن مصيرهم واحد هو الهلاك والعذاب ..

ويعودالسياق ليسأل الجن والإنس : « ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟؟ » ..

وهنا يسجل هؤلاء على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه : « قالوا شهدنا على أنفسنا » ويأتى هذا التقرير فى موضعه « وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .. فقدغرتهم الحياة الدنيا وقادهم الغرور إلى الكفر ثم هاهم أولاء يشهدون على أنفسهم من حيث لا تجدى المكابرة والانكار .. ويلتفت السياق إلي رسول الله ﷺ ومن ورائه من المؤمنين معقبا على هذا المشهد وما فيه فيقول : « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » ومبينا حقيقة أخرى فيشأن جزاء المؤمنين والشياطين فيقول : « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » ..

على أنه سبحانه انما يرسل رسله رحمة بالعباد فهو غنى عنهم وهو قادر على أن يهلكهم ويستخلف من بعدهم ما يشاء فهم فى قبضة الله ورهن إشارته ولن يفلتوا من عقابه ..

وتنتهي تلك التعقيبات بهذا التهديد : « قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار .. إنه لا يفلح الظالمون ..

وهذا تهديد الواثق من الحق الذى معه والحق الذى وراءه ومن القوة التي فى الحق والقوة التي وراء الحق ، وقبل أن نبدأ حلقة جديدة في اعتقاد المشركين الفاسد يجب أن نتبين مقدار هذا الاحتفال بأمر الذبائح رغم أن آيات السورة — وهى مكية — لم تكن تعالج تشريعات انما كانت تؤسس عقيدة .. ومن ثم نعرف أن مسألة الذبيحة جزئية تنبثق من أصل كبير : هو أن الحكم يجب أن يكون لله وإلا فهو الإشراك والظلم والعذاب وموقف الخزى والضلال يوم القيامة ..

ولنبدأ من الآيات جولة جديدة في اعتقادات المشركين وكيف أراد الاسلام اقتلاع جذورها :

فهم قد جعلوا لله جزءاً من الحرث والأنعام ولآلهتهم جزءاً مثله ولم تكن القسمة عادلة : فقد كانوا يجورون على نصيب الله ويأخذون ماجعلوه له إذا ما أصابتهم السنة وأقروا ما جزأوه لشركائهم : وهذا كله محض افتراء يرد عليه القرآن بأنهم معترفون ابتداء أن هذا خلقه وهذا ملكه : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً .. » فبالرغم من أنه ملك لله خلقه بقدرته يتصرفون هم فيه حسب ما تمليه الأهواء .

وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف فى أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم .. وهدف هؤلاء الشياطين من ذلك : إهلاكهم وأن يجعلوا دينهم عليهم ملتبساً غامضا لايقفون منه على تصور واضح ..

وهـذا دائماً شأن الجاهليات في كل زمن : تنشىء عادات وتقاليـد تضغط على الناس وترهق أعصابهم .. ولكن مع ثقل هذا الواقع فان السياق القرآنى يهون منه ويخبر رسوله أن الشياطين جميعاً في قبضة الله ولو شاء مافعلوا هذا ولكن شاء ذلك للابتلاء .. فليمض الرسول وصحبه فى طريقهم وليدعوا له الشياطين وما يفترون على الله وما يكيدون .

.. وتعود الآيات إلى شرح ضلال الجاهلية فى تقسيمها للانعام والحرث : فهذه أنعام وزروع مختصة بالإله محرمة على الناس لا يطعمونها الا من شاء الله وتلك أنعام لاتركب وأنعام أخرى لايذكر عليها اسم الله عند ركوبها ولاعند حلبها ولا عند ذبحها إنما تذكر أسماء الآلهة وتخلص لها ..

كل ذلك افتراء على الله وسوف يعاقبهم على هـذا الضلال .. وتستطرد الآيات فى بيان أوهام تصرفاتهم حين يقولون : إن ما في بطون هـذه الانعام خالصة للذكور منهم حين تنتج محرمة على الإناث الا أن تكون ميتة فيشارك فيها الاناث والذكور .. والحكيم العليم لابد أن يجازيهم على هذا الضلال .

ويعجب الإنسان لهذه الضلالات التي يتحملها المنحرفون عن صراط الله المستقيم والتي تكلفهم فلذات الأكباد فوق ما تكلفهم تعقيد الحياة واضطرابها والسير فيها بلا ضابط سوى الوهم والهوى والتقليد . ألا أنها لهى الخسارة

الفادحة في الدنيا قبل الآخرة حين تنحرف البشرية عن طريق الله وترجع إلى العبودية الذليلة لأرباب من العبيد . « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين . »

ولا يتركهم الله قبل أن يردهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها : وهي أن الله هو الخالق الرازق والسيد المالك والذى أنشأ هذه الجنات على اختلاف أشكالها وطعومها وهو الذي بث الحياة في الأرض ونوعها هذا التنويع . فهل يجوز التصرف في ملكه إلا بإذنه ؟ ؟

ويستعرض القرآن مكامن الجاهلية جزئية جزئية فلا يجد هؤلاء دليلا يدافعون به سوى الوهم والانحراف :

هذه الأنعام متساوية في خلقتها فكيف تحرمون بعضها وتحلون بعضها الآخر ؟ ؟

وبقية الأزواج من الإبل والبقر أيهما كذلك حرم ؟ ؟ . أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ ؟ إنه الظلم والافتراء على الله بغير علم لإضلال الناس . والله لا يهدى القوم الظالمين .

ثم يأخذ بأيديهم ليبين لهم ما حرم الله حقاً من الأنعام عن بينة صادقة لاعن ظن وخيال :

« قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير — فانه رجس — أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم . . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون . »

ويفتح الله بابه بقدر ما يرهبهم بقوته وجبروته : « فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

ويواجه وهمهم الأخير : إدعاؤهم أنهم مجبورون لا مخيرون فيما ترددوا فيه من شرك وضلال .

والمسألة لا تحتاج إلى فلسفات ومجادلات في قضية الجبر والاختيار : فالله لا يكلف الناس أن يعلموا ما في الغيب حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أوامره ونواهيه ليتبعوها وحين يحاولون ذلك تكفل الله بأن يهديهم ويشرح صدورهم للاسلام ـ والله سبحانه قادر أن يخلق الناس ابتداء من طبيعة واحدة كالملائكة أو الشياطين ولكنه شاء غير ذلك : شاء أن يبتلى بنى آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال وبذلك تكون له الحجة البالغة على عباده .. فسبحانه من إله حكيم .

وكما وجه الله رسوله من قبل وفي أول السورة إلى مواجهة المشركين في موقف الإشهاد على قضية الألوهية يوجههم إلى مواجهتهم في قضية التشريع . فهما قضيتان لا ينفصلان والتخلي عنهما وإنكار واحدة منهما شرك بالله «قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » كما أن منكرى الألوهية بربهم يعدلون «الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

وبعد هذه الجولة الضخمة مع المشركين وتصوراتهم وبعد الشوط الطويل في بيان قدرة الله وعلمه المحيط يناديهم ليقص عليهم المحرمات والأوامر وليوضح الطريق المستقيم والذي سنتبع خطاه في صفحات مقبلة . يناديهم فيعرفهم ما يجب عليهم أن ينتهوا عنه وما يتحتم عليهم أن يلتزموا به .

إنه عدم الإشراك بالله والاحسان للوالدين . والبعد عن قتل الأولاد . وعدم الاقتراب من الفواحش وأظهرها فاحشة الزنى . سواء ما ظهر منها وما بطن . والانتهاء عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق . وألا نقرب مال اليتيم إلا في الحدود التي رسمها الله . وأن نوفى المكيال والميزان حقهما في حدود الطاقة البشرية .

وأن نعدل فى القول ولو كان المشهود عليه قريباً ، وأنه الوفاء بعهد الله واتباع صراط الله المستقيم ، وإلا تاهت بنا السبل لأنها جميعاً سبل الشيطان ، والله وصانا بهذ الفصل إلى مرتبة التقوى والخوف منه فنحيا فى أمان وسلام .

ولا تترك هذه الوصايا دون تعقيب وتقرير وتثبيت وتأكيد لأهميتها فى حياة البشرية وجمعها لمبادىء الإسلام من عهد آدم إلى عهد محمد عليهم السلام.

فتتحدث الآيات بعد هذه الوصايا عن كتاب موسي باعتباره أقرب الكتب هو وكتاب عيسي الذى يعتبر تكملة لكتاب موسى وأن هذا الكتاب فصل كل شيء وحمل الهدى والرحمة لمن يؤمن به وجاء القرآن مكملا للرسالات خاتماً للكتب يحمل البركة والرحمة والسكينة لمن اتبعه ، وجاء القرآن قطعاً لحجة العرب كي لا يقولوا إنه لم يتنزل علينا كتاب كالذى نزل على اليهـــود والنصارى ولو نزل علينا لكنا أهدى منهم فها هو ذا القرآن قد جاءكم به محمد رسول الله يحمل إليكم حقائق بينه لا لبس فيها ولا غموض ، وهو هدى لما هم فيه من ضـــلاله ، ورحمة لهم فى الدنيا والآخرة ،ومع ذلك فهم مكذبون معرضون ، فمن أشد ظلماً ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهى تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ؟؟

إنهم فى طبعهم آفة تميلهم عن الحق ، والله سينزل بهم سوء العذاب جزاء هذا الإعراض عن دين الله ، ويهددهم الله فيقول : هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ؟ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ،، قل انتظروا إنا منتظرون » .

ويعلن القرآن مفارقة الإسلام لهؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعاً فمردهم إلى الله ينبئهم ويحاسبهم بما كانوا يفعلون .

وبهذه المناسبة يقرر الله ما كتبه على نفسه من الرحمة فى حساب عباده المؤمنين

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » .

وفى ختام السورة وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع يأتى هذا التقرير الحاسم بهذا اللفظ «قل» الذى يتكرر مع كل أمر ونهى ليلمس فى كل آية أعماق القلب البشرى لمسات دقيقة فى مكامن التوحيد الشامل : فالرسول — عليه السلام — يعلن أن ربه هداه إلى صراط مستقيم ، وهذا الصراط لا التواء فيه ولا عوج : ديناً قيما ، وهو دين الله القديم منذ ابراهيم أبى الانبياء عليه السلام .

ويردد الرسول هذه التسبيحة المباركة تحمل التجرد الكامل والإخلاص الأكيد : قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

ويعلن استنكاره أن يتخذ له رباً غير الله فهو رب كل شىء وهو الذى يجازى كل نفس بما كسبت والجميع راجع إليه يظهر لهم ما خفى ويكشف أمامهم ما كانوا فيه يختلفون ، وهو الذى استخلف آدم وذريته فى الأرض ووزع الأرزاق بحكمته ومشيئته اختباراً لهذا الجنس البشرى فيما أعطاه :

« إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

وبعد :

فهذه سورة الأنعام فى هذا العرض القصير الذى يبين مدى احتفال السورة كلها بأمرين هامين : الألوهية ، والتشريعات ، وأن الله هو الإله القادر المتصرف فى شئون خلقه ، وتأتى وصايا هذه السورة فى آياتها الثلاثة تجميعاً وتركيزاً لما حوته من حقائق هائلة فى الكون والحياة وماوراء الكون والحياة من غيب مكنون ومن قدر مجهول ومن مشيئة تمحو وتثبت وتنشىء وتعدم وتحيى وتميت وتحرك الكون والأحياء والناس كما تشاء

والآيات الثلاثة بعد مشاهد القيامة ومواقف الحشر ولحظات الأمل

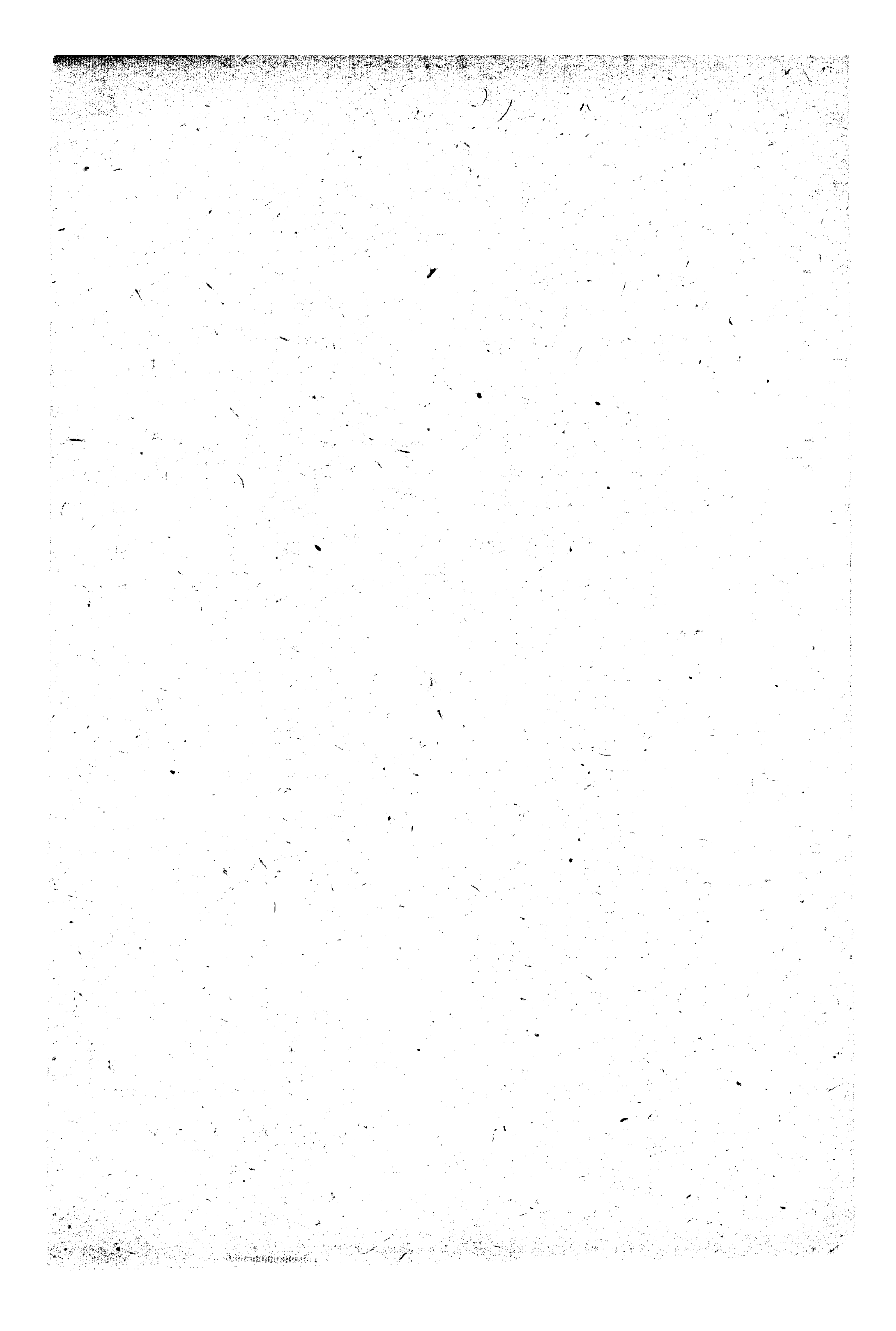
والاستبشار تأتى فى موضعها النفسي المناسب لتلقى بهذا الأسلوب الجامع لمطالب الحياة ولتقذف فى القلب أنوار الوحى الإلهي فتشرق الروح وتحقق هذه التعاليم فى السر والعلن ، بل ويدافع صاحبها عن هذه المبادىء السامية فى عزة لا تعرف الذل وشمم وإباء لا يركنان إلى الضيم وهو يعلم أنه يكسب الخلود ويحقق الخير وينشر الأمان فى كل مكان ويحقق معنى الاستخلاف فى أرض الله .

وبعد هذا الاستعراض وبيان موضع الآيات فى السورة آن لنا أن نتتبع كل وصية بالتحليل حتي نقف على أسرار القرآن ونرى ما صنعه وما يصنعه فى حياة الناس ، وكيف أحيا أمة من العدم ونقلها من رعاة أغنام إلى رعاة أمم وبناة حضارات ، وصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله [1] »

---

(١) سورة آل عمران ٣/١١٠



الوصية الأولى :

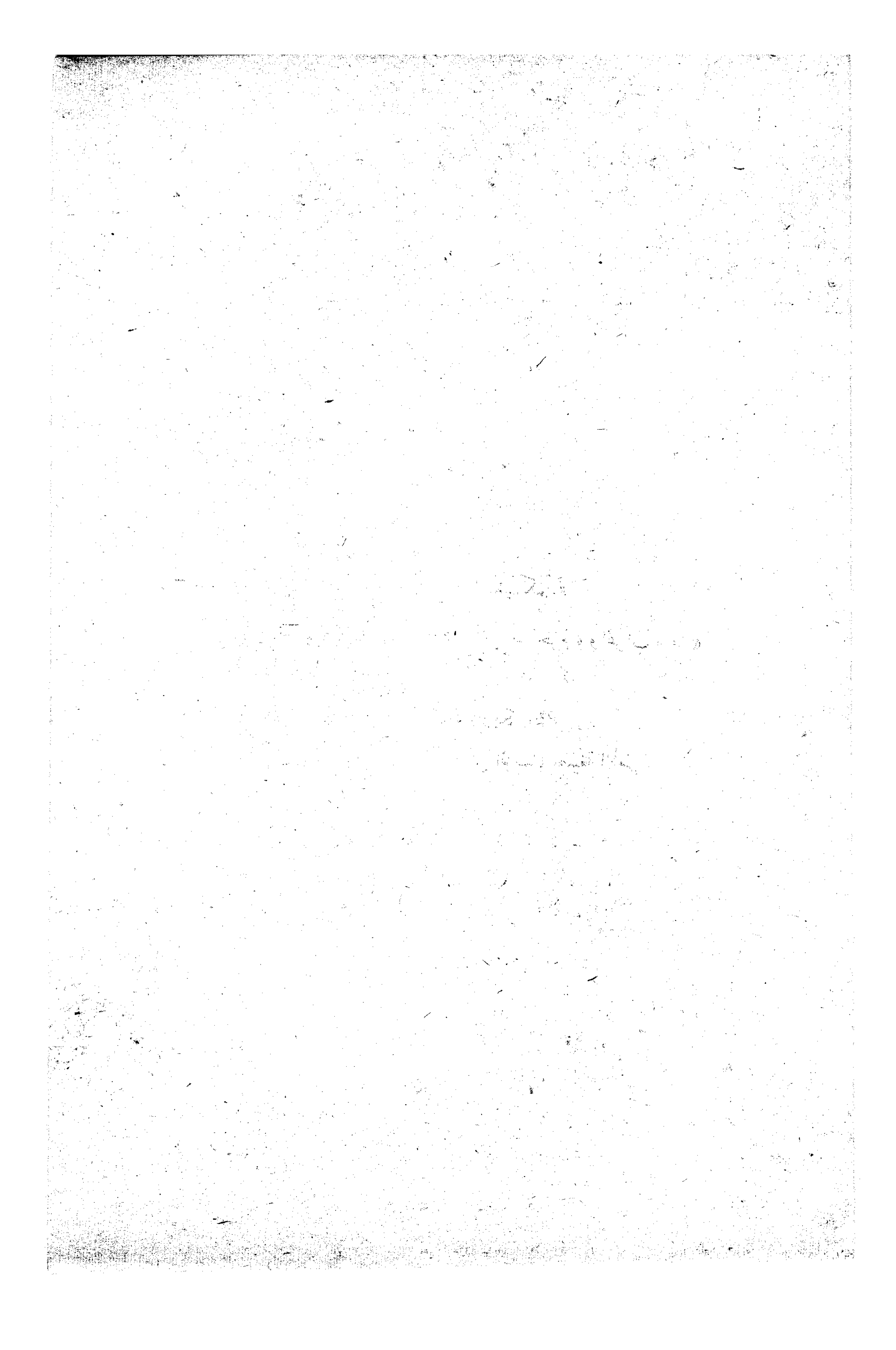
قوله تعالى :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ »

١ — المعنى اللغوى للكلمات ، تعالوا — أتل — حرم ، واعراب « ما » فى قوله « ما حرم »

٢ — ماذا يدل عليه قوله ، « تعالوا »، « ربكم » ؟؟

٣ — التوفيق بين « ما حرم » وما ورد من الوصايا بصيغة الأمر



١ — ورد هذا الأمر « تعالوا » فى القرآن ثمانى مرات ... وهو كما يقول الفخر الرازى ، من الخاص الذى صار عاماً وأصله أن يقوله من كان فى مكان لمن هو أسفل منه ثم كثر وعم[1] !

و « أتل » أى ، أقرأ ماحرم ربكم عليكم « وقد جزم الأكثر بأن التلاوة خاصة بالقراءة ، وأصل التلاوة ، الاتباع ، قال الراغب ، التلاوة تختص باتباع كلام الله المنزل بالقراءة تارة وأخرى بالارتباط لما فيه من أمر ونهى وترغيب وترهيب أو ما يتوهم فيه ذلك وهى أخص من القراءة »[2] ؟

والتحريم . من الحرمة ، ما لا يحل انتهاكه . و « ما » فى قوله « ما حرم ربكم » منصوبة وفي ناصبه وجهان أنه منصوب بقوله « أتل » والتقدير أتل الذى حرمه عليكم . والثانى أنه منصوب « بحرم » والتقدير أتل الأشياء التى حرم عليكم[3] والمعنى بعبارة أوضح . حرم عليكم ربكم ما أتلوه .

٢ — وحين نقرأ قوله تعالي « قل تعالوا » نلاحظ رحمة الله بخلقه وسياسة القرآن الحكيمة في تربية النفوس إذ ينادى العلي الكبير عباده لينقذهم من وهدة الضلال ويحررهم من رق العادات التافهة والتقاليد البالية والأوضاع المخرفة والشرائع التى أملاها الهوى وليست شريعة أو دينا يناديهم من رفعته لينظروا إلي جنابه الحق وليفيقوا من غفلتهم ويتيقظوا إلى ماهم فيه حيرة وجهالة وخسران . وحين يقرأ عليهم ما حرمه إنما يربيهم بلطفه وعنايته .

والتربية الإلهية تبدو فيها الرحمة الحانية والسكينة تغمر الكيان الإنسانى آمناً مطئناً لا تسيطر عليه الشهوات ولا تصرفه وساوس الشياطين من الجن والإنس .

---

(١) مفاتيح الغيب ص ٢٣١ ج ١٣

(٢) حاشية القاموس المحيط ص ٣٠٦

(٣) مفاتيح الغيب ص ٢٣١ ج ١٣

واذاً فالله ينادينا ليربينا . وما أجمل تربية الخالق لعباده .

٣ — وقبل أن نبدأ فى بيان ما اشتملت عليه الوصايا من أسرار نقف مع مع المفسرين لنعرف أمرين هامين .

الأول . أن من بين الوصايا العشر خمساً جاءت بصيغة الأمر وهو مطلوب فعله فكيف يتفق هـذا مع قوله سبحانه (تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) ؟ ؟

الثانى . لماذا ختمت كل آية من الآيات الثلاثة بقوله. (ذلكم وصاكم به) ؟ وهل لهذا التعبير صلة تفسيرية بقوله فى أول الوصايا أتل ماحرم ربكم عليكم ؟ ؟

أما الأمر الأول . فمن أجمع ما قيل فيه ماساقه الفخر الرازى حين أورد هـذا الاعتراض وأجاب عليه فقال . « فان قيل قوله ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا كالتفصيل لما أجمل فى قوله ماحرم ربكم عليكم . وهذا باطل لان ترك الإشراك والإحسان وبالوالدين واجب لا محرم ؟ ؟

والجواب من وجوه .

أولاها ، أن المراد من التحريم أن يجعل له حريماً معيناً وذلك بأن يبينه بياناً مضبوطاً معيناً .

فقوله . أتل ما حرم ربكم عليكم ، معناه أتل عليكم ما بينه بياناً شافياً بحيث يجعل له حريماً معيناً ، وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل .

ثانيهما . أن الكلام تم وانقطع عند قوله ، أتل ما حرم ربكم ، ثم ابتدأ ، عليكم ألا تشركوا .

كما يقال . عليكم السلام ، أو أن الكلام تم وانقطع عند قوله . أتل ماحرم ربكم عليكم ثم ابتدأ فقال ، ألا تشركوا به شيئاً بمعنى لئلا تشركوا والتقـدير أتل ما حرم ربكم عليكم لئلا تشركوا به شيئاً .

ثالثا : أن تكون « أن » فى [illegible] شركوا » مفسرة بمعنى « أى » وتقدير الآية أتل ما حرم ربكم عليكم أى لا تشركوا . أى ذلك التحريم هو قوله . لا تشركوا به شيئاً »(١) .

وقد وافق الزمخشرى الإمام الفخر الرازى فى أن « أن » مفسرة وليست ناصبة للفعل المضارع .

إنما الفعل المضارع مجزوم بلا الناهية ويقول فى التخلص من عطف الأوامر على النواهى مما يستلزم الأمر وضده . « فان قلت . إذا جعلت « أن » مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بما حرم ربكم وجب أن يكون ما بعده منهيا عنه محرما كله كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهى فما تصنع بالأوامر ، قلت . لما وردت هذه الأوامر مع النواهى وتقدمهن جميعاً فعل التحريم واشتركن فى الدخول تحت حكمة علم أن التحريم راجع الى أضدادها وهى . الإساءة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل فى القول ونكث عهد الله .

ويوجه قراءة فتح الهمزة فى «وأن هذا صراطى مستقيما» على هذا الرأى بجعلها علة للاتباع بتقدير اللام كقوله تعالى . « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » بمعنى . ولأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه والدليل عليه القراءة بالكسر كأنه قيل . واتبعوا صراطى لأنه مستقيم أو واتبعوا صراطى أنه مستقيم » (٢)

ومن أقرب ما قيل فى هذه المسألة ما ذكره محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى وذلك إذ يقول . (فان قيل كيف قال . قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ثم فسره بعشرة أحكام . خمسة منها واجبة والتلاوة وصف للفظ لا للمعنى كى لا يقال . أضدادها محرمات ؟ قلنا قوله . أتل ما حرم ربكم عليكم .

---

(١) مفاتيح الغيب ص ٢٣١ ج ١٣

(٢) الكشاف للزمخشرى ص ٥٣٥ ج ١

لا ينفى تلاوة غيره فقد تلا ما حرم وتلا غيره أيضاً . الثانى . أن فيه إضماراً تقديره . أتل ما حرم ربكم وأوجب) (١)

وقد قال ابن جزى فى إجمال أقوال المفسرين وتوجيه رأيه :

« قيل .(أن) هنا حرف عبارة وتفسير فلا موضع لها من الإعراب و(لا) ناهية جزمت الفعل — وقيل . (أن) مصدرية فى موضع رفع تقديره . الأمر ألا تشركوا . فـ(لا) على هذه نافية . وقيل (أن) فى موضع نصب بدلا من قوله « ماحرم » ولا يصح ذلك إلا أن كانت « لا » زائدة وإن لم تكن زائدة فسد المعنى لأن الذى حرم على ذلك يكون ترك الإشراك والأحسن عندى أن تكون (أن) مصدرية فى موضع نصب على البدل و (لا) نافية ولا يلزم ما ذكر من فساد المعنى لأن قوله (ما حرم ربكم) معناه . ما وصاكم به ربكم بدليل قوله فى آخر الآية (ذلكم وصاكم به) فتضمن التحريم معنى الوصية والوصية فى المعنى أعم من التحريم لأن الوصية تكون بتحريم و بتحليل و بوجوب و ندب ولا ينكر أن يريد بالتحريم الوصية ، لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص وتريد به العموم كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص .

إذا تقرر هذا فتقدير الكلام . قل تعالوا أتل ما وصاكم به ربكم .. ثم أبدل منه على وجه التفسير والبيان فقال . ألا تشركوا به شيئا ووصاكم بالإحسان بالوالدين ووصاكم ألا تقتلوا أولادكم فجمعة الوصية ترك الإشراك وفعل الإحسان بالوالدين وما بعد ذلك .

ويؤيد هذا التأويل الذى تأولناه أن الآيات اشتملت على أوامر كالإحسان بالوالدين وقول العدل والوفاء فى الكيل والوزن وعلى نواه كالاشراك وقتل النفس وأكل مال اليتيم فلا بد أن يكون اللفظ المقدم فى

---

(١) أنموذج جليل فى بيان أسئلة وأجوبة من غرائب أى التنزيل للرازى ص ١٠٥ ج ١

أولها لفظاً بجمع الأوامر والنواهى لأنها أجملت فيه ثم فصلت بعد ذلك .. ويصلح لذلك لفظ الوصية لأنه جامع للامر والنهى فلذلك جعلنا التحريم بمعنى الوصية ويدل على ذلك ذكر لفظ الوصية بعد ذلك وإن لم يتأول على ماذكرناه لزم فى الآية إشكال وهو عطف الأوامر على النواهى وعطف النواهى على الأوامر فان الأوامر طلب فعلها والنواهى طلب تركها وواو العطف تقضي الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه ولايصح ذلك الا على الوجه الذى تأولناه من عموم الوصية للفعل والترك ..)(١)

واذاً فالمقصود من التحريم هو الوصية .. وهى تشمل الجانبين، الأوامر والنواهى .. والغاية من ذكرهما معا واضحة ..

إذ أنهما جميعها طريق الله الذى يلتزمه المسلم فلا يحيد عنـــه .. وهى المنهج الواضح الذى لايضل فهى عشر وصايا فى العدد ولكنها تشمل العقيدة والقول والعمل ..

أما الأمر الثـانى : فهو ذكرا (وصاكم به) عقب كل آية من الآيات الثلاثة وهل لهـذا صـلة تفسيرية بقوله فى أول الآيات .. أتل ما حرم ربكم عليكم ؟؟

فان هذا الأمر يبدو واضحاً بعد أن عرضنا رأي ابن جزى وأن التحريم يعنى الوصية وهى كلمة عامة تشمل النواهى والأوامر .. والنواهى وصى بهـا على سبيل التحريم والأوامر وصى بها على سبيل الإيجاب .

وانما كررهذا التعبير فى نهاية كل آية من الآيات الثلاث للاشارة إلى ضرورة الإلتزام والتنفيذ لهذه الأحكام .. يقول أبو حيان : (ذلكم إشارة إلى جميع

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزى الكلبى المالكى المتوفى عام ٧٤١ هـ ص ٢٥ ج ٢

ما تقدم وفى لفظ وصاكم من اللطف والرحمة وجعلهم أوصياءله تعالى ما لايخفى من الإحسان[1]) .

وخشية التطويل والإسهاب الذى سيجرنا اليه ما ذكره المفسرون حول هذه المعانى وتحليلها نكتفى بهذه الأضواء الكاشفة لما دار بأنفسنا من تساؤلات وننتقل الى الموضـــوع الرئيسى (الوصايا العشر) نفهم مع القرآن أسراره ونجتلى أنواره .. والله ولى المتقين ..

(١) الفتوحات الإلهية ص ١٠٩ ج ٢

قوله تعالى :

« أن لا تشركوا به شيئاً .. »

١ — المعنى اللغوى لكلمة الشرك

٢ — الآيات التى ورد فيها لفظ الشرك : تحليل ومقارنة



١ — المعنى اللغوى لكلمة الشرك .. وإعراب الجملة :

أما المعنى اللغوى لكلمة الشرك : فالمعاجم تذكر لنا أن الشرك هو الكفر .. وقد أشرك بالله فهو مشرك .. ويقول صاحب القاموس المحيط فى مادة الشرك : « والشرك والشركة بمعنى .. وقد اشترك وتشاركا وشرك أحدهما الآخر .. والشريك بالكسر كأمير : المشارك . جمعه أشراك . وهى شريكة جمعها شرائك وشركة فى البيع والميراث كعلمه شركة .. وأشرك بالله كفر فهو مشرك ومشركى .. والاسم : الشرك فيهما ورغبنا فى شركم : مشاركتكم فى النسب »[1] .

أما إعراب « أن لا تشركوا » فقد وفينا هذا الإعراب حقه ووجهنا الآية مع كل إعراب ونقلنا أقوال المفسرين بما لا حاجة إلى إعادته .

٢ — الآيات التي ورد فيها لفظ الشرك : تحليل ومقارنة :

ولعل فى تتبع الآيات التي جاء فيها لفظ الشرك ما يوضح لنا معناه ويكشف عن حقيقته : فقد تكرر فى القرآن أكثر من مائة وستين مرة .. وذلك لأن التوحيد أساس الإسـلام كله بل أساس الشرائع كلها من لدن آدم إلى محمد عليهم السلام .

ومن محو الشرك وإقرار الوحدانية المطلقة والربوبية الكاملة لله ينبثق الخير كله وتستقر الحياة كلها وتسير فى مجراها الصحيح .

والقرآن حين ينوع أساليب النقاش مع المشركين ويصرف الآيات إنما يريد أن يصل إلى جذور الشرك فيقتلعها من النفوس التي تعودت عليه .. فالتوحيد أساس الفطرة : « فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين »[2] .

---

(١) القاموس المحيط جـ ٣ ص ٣٠٨ (٢) سورة الروم ٢٩/٣٠

وهو العهد الأزلي منذ الخليقة ، تتجاوب معه العقول السليمة فتأبى تقليداً أعمى للآباء :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم .. من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟؟ قالوا : بلى شهدنا .. أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين .. أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ » (١).

فاذا انصرفت عن نداء الحق وطمست فطرتها وسارت وراء كل ناعق فقد هلكت . . « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . . أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . . ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . . صم بكم عمى فهم لا يعقلون »(٢)

وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . . قال : أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون (٣)

وتوحيد الله إفراده بالوحدانية : فهو سبحانه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله . . وهو الذى يجب أن يفرد — إذن — بالعبادة . . وأن يرد إليه أمر الحكم والتشريع وحده . . « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم . .(٤) « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً(٥) فهى ـ إذن ـ قواعد ثلاث : توحيد ذاته ، توحيد جهة العبادة ، وتوحيد جهة الحكم والتشريع :

---

(١) سورة الأعراف ١٣٧/٧ .

(٢) سورة البقرة ٢/ ١٧٠ ، ١٧١ (٣) سورة الزخرف ٢٣/٤٣ ، ٢٤

(٤) سورة يوسف ١٢/ ٤٠ (٥) سورة النساء ٤ /٨٠

فالقاعدة الأولى : وهى الاعتقاد فيها إلهاً واحداً يسوق القرآن لها كثيراً من الأدلة التي تثبت أنه خالق السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن وهو لذلك إله واحد .

ولنأخذ مثلا لذلك من سورة الانعـــام : فهى تبين أنه سبحانه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وخلق الإنسان من طين وله ماسكن فى الليل والنهار .

فكيف يكون له شريك فى الملك : « قل أغير الله اتخذ وليا . فاطر السموات والأرض . . وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

وهو المسيطر والمهيمن والحكيم والخبير . . وإذا كان الكافرون يشهدون أن مع الله آلهة أخرى فالرسول عليه السلام . مأمور أن يقول : « لا أشهد قل : إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون « فهؤلاء سيندمون على شركهم « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ! !

ومرة أخرى يبين إبداعه فى خلق عوالم الطير وأنها أمم أمثالكم ولكن المكذبين صم وبكم فى الظلمات لا يذكرون خالقهم إلا إذا مسهم الضر أو أتتهم الساعة :« قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون »

والله ـ أيضاً ـ عنده مفاتح الغيب . . لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر . . نعم علمه محيط ودقيق : « ما تسقط من ورقة إلا يعلمها » وكم عدد الأوراق التي تسقط فى أنحاء الأرض!!

« ولا حبة فى ظلمات الأرض » وكم هذه الحبات ومن يحيط بها عدا ؟ ؟

« ولا رطب ولا يابس » وكم هذا الرطب وكم هذا اليابس ؟ ؟

وهذه آياته فى منامكم بالليل والنهار وكل خاطرة يعلمها وحده ويعلم ماجرحتم بالنهار . وهو القاهر فوق عباده . وهو الذي ينجيكم من كل كرب ثم أنتم تشركون .

وهذا إبراهيم عليه السلام يطلعه الله على ملكوت السموات والأرض :

فيجارى قومه ليثبت لهم ضلال ماهم فيه وقد كانوا عبدة كواكب وأصنام : فهذا النجم المضىء سرعان ما أفل وذلك القمر الساطع لم يدم . وهذه الشمس المشرقة أذنت بالمغيب . وكل ما في الكون يتغير ولا يدوم . ولا بد من مصدر لهذا الخلق كله . إنه الله الواحد الأحد . لذلك يلتفت إبراهيم إلى قومه قائلا : « يا قوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

ويجادله قومه ولكنه يستمد قوته من الحق الذى بين يديه : « وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علماً أفلا تتذكرون ؟ ؟ وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ؟ ؟ فأى الفريقين أحق بالأمر إن كنتم تعلمون ؟ ؟

ورهط الأنبياء سار فى طريق التوحيد وعلى نهجهم سار الكثير من آبائهم وأبنائهم لم يشرك واحد منهم بالله ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعلمون .

وجولة أخرى مع دلائل الله الواضحة : فهو فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحى .

وهو فالق الإصباح عن نور النهار المشرق . وجعل الليل للراحة والهدوء وخلق الشمس والقمر لتنتظم أمور الناس حيث يعرفون عدد السنين والحساب والنجوم تدور فى أفلاكها يهتدى بها السائرون فى ظلمات البر والبحر . وهذه النطفة من صلب الرجل إلى رحم المرأة: من أودعها خصائصها وبث فيها الحياة؟؟

والأمطار الهاطلة بقدر . . وتلك الخضرة البديعة وهذا الحب المتراكب . . والنخل من طلعها قنوان دانية وتلك الحدائق الغناء من الأعناب والزيتون والرمان . . فهل تبقى بعد ذلك حجة لمشرك ؟ ؟ ؟

ومع وذلك « جعلوا لله شركاء الجن . وخلقهم . وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض . أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ ؟ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل » .

وبعد هذا البيان الواضح تبقى مهمة الرسول : البلاغ . . والتمسك بالحق الذي بين يديه والإعراض عن المشركين : « اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين » .

ومثل آخر لتوحيد الله من سورة « النحل » :

فهي تبدأ بانذار المشركين وتهديدهم وتنزيه الله عن قولهم الباطل وإدعائهم الآثم : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون » .

وتسوق الدليل متسقاً مع الفطرة بعيداً عن تعقيدات المتكلمين وشطحات الفلاسفة ، دليلا بسيطاً ولكنه ضخم فيما يحمل من قوة المنطق ونصاعة الحجة والبرهان .

من خلق السموات والأرض بالحق ؟ ؟

من خلق الإنسان من نطفة فكانت هذه المفارقة بين النطفة والإنسان الخصيم المبين .. « تعالى الله عما يشركون » ! !

نعم . . تعالى عما يشركون فهو الخالق لكل شيء . . الأنعام وما فيها من متعة وراحة ومنفعة وما يؤدى وظيفة الأنعام فى الراحة والمتعة والجمال على

تعاقب الأجيال والأزمان : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » .

والماء ينزل من السماء فتكون به الحياة .. منه شراب ومنه شجر « ينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات » .

والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرة كلها بأمره .. وما خلقه فى الأرض على اختلاف ألوانه من أجل مصلحة هذا الإنسان والبحر وما فيه من حياة وما يستخرج منه من أنواع الزينة .. والفلك التي تمخر عبابه تبتغى من فضل الله ورزقه وما أودعه الله فى هذا الماء من خصائص تيسرت معها كل هذه المنافع .. والجبال رواسي لئلا تميد بنا الأرض ، وما ألقى فى هذه الأرض من أنهار وما جعل فيها من طرقات وما بث فيها من علامات جعلت حياة النوع الإنسانى سهلة ميسورة .. فكيف بعد هذه الدلائل يكون إشراك ؟ ؟

وكيف يتساوى الخالق بالمخلوق ؟؟ وصاحب كل نعمة بمن لا يمتلك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؟ ؟

« أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم » .

وكيف يتعدد الإله فتكون معه آلهة ؟ ؟ ألا إنه إله واحد ولكن الذين لايؤمنون بالآخرة يستكبرون عن الحق وجزاؤهم العذاب فى الدنيا من حيث لايشعرون « ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ ؟ قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين » ! !

وكل انصراف عن هذا المبدأ لا يفيد وكل تعلة للاشراك هنا لا تقبل حتى ولو كانت مشيئة الله ذاته فهو — سبحانه — قد أوضح الحق ودل على الطريق ودعا إلى الهدى ولا عذر لمعتذر .. وما على الرسول إلا البلاغ المبين : « وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء .. كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسول إلا البلاغ المبين » ؟ ؟

نعم لا عذر لمعتذر فقد قال الله : « لا تتخذوا إلهين إثنين . . إنما هو إله واحد فإياى فارهبون . . وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً . . أفغير الله تتقون » ؟ ؟

والمشركون يتبرأون من شركائهم حين يرون العذاب : « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ، وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك . . فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

وحزب الشيطان هم هؤلاء المشركون .. يوجههم الشيطان ويسيطر عليهم أما المؤمنون الموحدون فهم متحررون من رجسه ووساوسه : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » .

وطريق عبادة الله وحده طريق الأنبياء .. هذا إبراهيم — عليه السلام — كان أمة جامعة للخير مخلصاً له قلبه : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله.. حنيفاً.. ولم يك من المشركين » .

ورسولنا — ﷺ — مأمور بالسير فى طريق هذا التوحيد الناصع : « ثم أوصينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

وإذا كانت هذه سورة النحل تبين التوحيد الخالص فالقرآن مليء بتقرير هذه الحقيقة : فإن إفراد الله وحده بالألوهية تنافى ماتعارفت عليه الأجيال المشركة وأهل الملل والنحل الضالة .

فالذين ألهوا عيسي بن مريم : مشركون . . « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » .

ومن يأكل الطعام ويقضي حاجته محتاج لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً . .

فكيف يكون إلها ؟؟ لذلك حكم الله عليهم بالكفر فقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم .. قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح : يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم .. إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » .

وناداهم بألا يغلوا فى ادعاء الألوهية لعيسى : يقول سبحانه : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد . له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا . . لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً »[1]

واليهود كالمسيحيين مشركون بالله : « وقالت اليهود عزير ابن الله . . وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل .. قاتلهم الله أنى يؤفكون »[2]

وعبدة الشمس مشركون : وفى قصة هدهد سليمان ما يوضح ذلك . . يقول القرآن بلسان الهدهد عن بلقيس وقومها : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون

---

(١) سورة النساء ٤ ١٧١، ١٧٢

(٢) سورة التوبة ٣٠/٩

ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ؟ ؟(١) .

ويوجه القرآن عبدة الكواكب إلى الحق الواضح : فان الكواكب آية من آيات الله وليست آلهة تعبد : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » (٢) .

كثير من آيات الكتاب المبارك تسهب فى البحث عن مواطن هـــذا الداء لتستأصله من النفوس . ولا يتسع المقام لشرحها وفيما قدمناه من أمثلة كاف فى بيان هذا النوع من الشرك وأنه عبادة إله أو آلهة أخرى من الأصنام والكواكب والأشخاص وغير ذلك مع الله . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

أما النوع الثانى من أنواع الشرك فهو مرتبط بالنوع الأول :

إذ أن من ادعى إلهاً آخر غير الله أومعه يقيم لهذا الإله مراسيم العبادة والنسك ويقدم لإلهه أنواع القرابين ويعتقد فيه النفع والضر .

وهذا الإنحراف يكلف أصحابه كثيراً من أموالهم ونفوسهم ويجعل حياتهم قلقة تعسه لا يسودها إستقرار ولا يوجهها عدل الإله الحق ويسره .

وهذا كتاب الله يظهر هذه الحقيقة ويجعلها مع الحقيقة الأولي — وهى ادعاء مع الله إلها آخر — شيئاً واحداً . . ويستعمل نفس التعبـــير الذى أورده فيمن ادعوا مع الله إلهاً آخر .

فهذه مسألة الذبح تبدو في ظاهرها هينة سهلة حين لا يذكر الذابح عليها إسم الله .. ولكنها تعنى فى الواقع قبول الإسلام أو رفضه .

---

(١) سورة النحل ٢٧/٢٤ — ٢٦

(٢) سورة فصلت ٤١ ٣٧

وفى سورة مكية هى سورة الأنعام تتوالى الآيات لتبين مدى الخطورة فى عدم ذكر الله على ما يذبح وتقديم الشعائر لغير الله أو لإله آخر مع الله .. ويصف القرآن هؤلاء بأنهم يضلون بأهوائهم بغير علم وأنهم معتدون على حق الله وأنهم يرتكبون الاثم وأن ذلك فسق .. وأنهم شياطين . وأموات . ومجرمون وضالون عن الطريق . وظالمون : بل مجرد إطاعة المؤمنين لهؤلاء فى بهتانهم إشراك : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . وإنه لفسق .. وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون.

ويعرفهم أن ما يصنعونه بالحرث والأنعام حكم ظالم جائر ليس له نصيب من العقل : «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ».

وهــذه العادات تكلفهم كثيراً من حياتهم . بل من فلذات أكبادهم وليس لذلك أساس من العقل أو النقل إلا محض الافتراء والجهالة العمياء . أنظر إلى قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله مافعلوه . فذرهم ومايفترون وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ».

وتبحث الآيات عن هذا الضلال الذى خطط له شياطين الإنس والجن فلا تترك لهم منفذاً حتى مجرد التعلل بما قدره الله . مما يدل على أن الله اعتبرهم مشركين رغم اعترافهم به واستنادهم فى تحريمهم وتحليلهم وعاداتهم وتقاليدهم إلى قدر الله سبحانه فالقرآن يقول : « سيقــول الذين أشركوا لو شاء الله

ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ».

بل إن الذين أشركوا مع الله إلهاً آخر عدلوا عن طريق الحق وسووا خالقا بمخلوق ففى بداية السورة : الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

وهناك فى موقف الاعتراف به إلهاً واحداً يدعوا إلى الإشهاد على هذه الحقيقة فيقول : « قل أى شيء أكبر شهادة ؟ ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ ؟ قل لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد وإننى برى مما تشركون » .

وهنا فى مسألة تقديم شعائر العبادة لغير الله مع الاعتراف به إلهاً يطلب الإشهاد على تحريم هذا الإشراك ويتبرأ من هذا الضلال ويعتبرهم غير مؤمنين بالآخرة .. وبربهم يعدلون فيقول : « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا .. فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

ويأمر رسوله أن يعلن أن الحياة كلها لله : «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

أما النوع الثالث من أنواع الشرك فهو تلقى الشرائع والأحكام من مصدر آخر غير المصدر الإلهى .

ومن واجبنا أن نقف أمام هذا اللون من الشرك نزيل ماران عليه من جهل القرون حتى يشرق الصبح لذى عينين ويعرف كل طريقه فيضع قدمه على أرض صلبة لا تميد .

ومن البديهيات ان المشرك كافر لأنه ستر الحق وأظهر الباطل .

وظالم لأنه أنكر الحق الواضح

وفاسق لأنه خرج عن الطريق المستقيم

وإذن .. فمادة الكفر التي تكررت فى القرآن كثيراً حتي بلغت ٥٢٥ مرة باشتقاقاتها المختلفة تضاف لمن أشرك بالله . والظلم الصريح هو هذا الشرك : يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم [١].

والشرك هو الفسق بعينه : لذلك نزل العذاب بالفاسقين : « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » [٢].

« فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » [٣].

« إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » [٤].

وقابل الله بين المؤمن والفاسق فقال : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً ؟ لا يستون » [٥] .

وقال : « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » [٦] .

وسوى المنافقين بالفاسقين — والمنافق يتساوى بالكافر لذلك جمعهم الله فى النار فقال : « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » [٧] .

---

(١) سورة لقمان ٣١ / ١٣ .

(٦) سورة الأحقاف ٤٦ / ٤٠ .

(٣) سورة البقرة ٢ / ٥٩ .

(٤) سورة العنكبوت ٢٩ / ٣٤ .

(٥) سورة السجدة ٣٢ / ١٨ .

(٦) سورة الحجرات ٤٩ / ٧ .

(٧) سورة النساء ٤ / ١٤٠ .

كما يقول القرآن :

« نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون » (١) .

« إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » (٢) .

« فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

ونفى الإيمان عن إنسان أو جماعة في مدلوله العام يساوي الشرك كما يساوي الكفر .

ومئات المرات التي تكرر فيها لفظ الإيمان مقابلا للكفر يثبت أن غير المؤمن كافر .. مشرك بالله ..

يقول القرآن فى المقابلة بين الكفر والإيمان : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره . إن الله على كل شيء قدير »(٣).

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً » (٥) .

ولإماطة اللثام عن هذا اللون من الشرك الذى لا يعرفه إلا قلة من الناس هى التى فقهت كتاب ربها وعرفت حدوده وأحكامه — فنزل آيات الكتاب المبارك فى سورتين تشرح هذه الحقيقة وتؤكدها :

هذه سورة النساء مدنية تشمل على كثير من الأحكام التى شرعها الله : فى اليتامى والنكاح والميراث وغير ذلك وتعقب على هذا بقوله تعالى : « تلك حدود الله .. ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده

(١) سورة التوبة ٩ / ٦٧ ، ١٨٤ .

(٢) سورة التوبة ٩ / ٩٦ .

(٣) سورة البقرة ٢ /١٠٩ .

(٤) سورة آل عمران ٣ / ١٧٧ .

يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » . والخالد فى النار هو الكافر المشرك .

والسورة بعد أن تبين جملة أخرى من أحكام الله فى ميراث النساء ومهورهن والمحرمات منهن وحكم المحصنة وغير المحصنة إذا أتت الفاحشة وقيادة الأسرة ولمن تكون مطلب السورة منا أن ننفذ هذه الأحكام الخالدة .

فهذه عبادة الله وإلا فهو الإشراك حين ينقاد الإنسان وراء الجهل والحمق وبرفض تعاليم ربه وذلك إذ تقول الآية : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شـــيئاً » .

ثم تواجه الآيات أهل الكتاب وتعرضهم للأبصار وهم يشترون الضلالة ويريدون أن يضلوا السبيل يحرفون الكلم عن مواضعه .. وهم لا ينكرون وجود الله إنما رفضوا شريعة الإسلام . تركوا شريعة التوراة فكانوا مشركين « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما » .

وفى جرأة الحق تنادى المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله وإلا فلا إيمان ولا إسلام إنما هو الإدعاء الباطل حين يتحاكم الناس إلى الطاغوت الذى يفرض سلطانه على النفوس فيلغى من على أرض الله أحكام الله ويحكم الناس بالهوى والجهل والباطل والناس مأمورون أن يفروا ويكفروا بهذا الطاغوت ولكنه يريد أن يضلهم ضلالا بعيداً .

إن ادعياء الإيمان يأنفون أن يتحاكموا إلى شرع الله ودينه ويصدون عن هذا الدين صدوداً عظيماً . والله لم يرسل رسله إلا لهداية البشر وإلا ليطاع الرسول باذن الله فان رجعوا عن شركهم وعنادهم وجدوا الله توابا رحيما . ثم يعلق الإيمان على تحكيم كتاب الله ويقسم على ذلك القسم المؤكد . وليكن مع تنفيذ أحكام الله التسيم المطلق له والشعور بالرضا والسكينة تغمر الكيان الإنسانى حين ينفذ أحكام العليم الخبير الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

ولنستمع إلى كتاب الله يجمع كل هذه المعانى الخالدة فيقول :

« يا أيها الذين آمنو أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا . ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً : وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول . رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما. فلاوربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

ومع طاعة الله ورسوله وقيمة هذه الطاعة ومدلولها على قبول الإسلام أو رفضه تسير الآيات تبين مواقف أهل الحق وأهل الباطل :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » وإن « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » وأن هذا الجهاد كله إنما هو لإقرار شرع الله وعدله الرحيم فى الأرض فلم ينزل هذا القرآن لاهوتاً وطقوسا وجملة من الشعائر تؤدى. إنما نزل ليكون دستور الحياة . ليصوغ الحياة وليصنعها بصناعة المحبة والعدالة . لم ينزل هذا القرآن للاموات والتمائم والتعاويذ والمناسبات إنما جاء ليبارك الحياة ويزكيها وينميها ويغرس فيها السمو الربانى ويرتفع بها إلى مركز الخلافة عن الله . تقول سورة النساء : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » .

نعم .. فهذه الجولة الواسعة فى الجهاد والمجاهدين والاستشهاد فى سبيل الله

إنما كانت كلها حرباً للطاغوت والطغيان وإقراراً لدين الله ليحكم الحياة بمفهومه ومدلوله وأنواره ولكن أهل الباطل يحاربون الله ورسوله وهم مخدوعون وهم ضعاف : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

نعم .. هؤلاء المسترعون شرعاً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الهدى اتبعوا غير سبيل المؤمنين .. اتبعوا أهواءهم وشياطينهم الذين قعدوا لهم القواعد وشرعوا لهم أحكاماً فى الأنعام والذبائح وغيرها ، هؤلاء مشركون « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً » .

أشركوا لأنهم اتبعوا هذا الشيطان الذى أملى عليهم هذا الضلال « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

وتمزج سورة النساء بين من رفضوا أحكام الله ومن ادعوا مع الله إلهاً آخر ومن ألهوا عيسى بن مريم فالكل سواء فى إنكار ما أنزل الله .. وماذا يفيد كفر هؤلاء بعد هذه الشهادة الربانية لرسول الله : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك .. أنزل بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » .

إنه النور الهادي والمصباح المضيء للناس . لكل البشر : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما» .

إنه البيان الواضح لئلا نضل . إنها الأحكام الخالدة من الحكيم العليم : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم .

وهذا برهان جديد تقدمه سورة المائدة وذلك إذ تتحدث عن أهل الكتاب فتبين كفرهم وضلالهم وتبين حكم الله فيمن رفض حكم رسول الله .. وتعمم

القضية فى كل من لم يحكم بما أنزل الله بأنه ليس من المؤمنين وأنه كافر .. ظالم .. فاسق .. وأن حكم البشر حكم الجاهلية ومن واجب المؤمنين ألا يتخذوا اليهود والنصارى أولياء يوالونهم بالمودة ويحكمون أهواء الكفار وعاداتهم وتقاليدهم فى حياة الجماعة المؤمنة ، فاليهود والنصارى حزب واحد والكفر ملة واحدة : « بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين » .

ولنستمع إلى آيات الله بقلوبنا لندرك هذه الحقيقة دون لف أو دوران . تقول الآيات : « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله .. ثم يتولون من بعد ذلك .. وما أولئك بالمؤمنين .. إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .. وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور .. ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين .. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا .. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .. ولكن ليبلوكم فيما آتاكم .. فاستبقوا الخيرات .. إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .. وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون .. أفحكم الجاهلية يبغون » ؟ ؟

« ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ؟ !

« يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين » .

ولا بد أن نلاحظ الفرق بين يحكم (بفتح الباء و بضم الكاف) ويحكم (بضم الباء وفتح الكاف) فالذى يحكم بغير ما أنزل الله هو الكافر وهو الظالم وهو الفاسق لكن ماذنب من يحكم بغير ما أنزل الله ؟ ما ذنب الشعوب التي يتسلط عليها حكامها ورؤساؤها وقادتها ؟ هل نجرد تلك الشعوب المغلوبة على أمرها من صيغة الإسلام ؟ هل نتهمها بالكفر والفسوق والظلم ؟ إن النظرة الواعية تجعلنا نفرق بين حاكم ومحكوم وغالب ومغلوب ، فلا نحمل المحكوم والمغلوب شيئاً ليس فى مقدوره ، ولا نرميه بالخروج على دين الإسلام إلا إذا رضي عن حكم غير الله وأعتقد أن هذا هو الحق وشارك قادته وحكامه عنادهم لشريعة الله وإصرارهم على رفض العمل بها وحربهم لحملة لوائها .. فى هذه الحالة يقول إنه شريك فى الحكم : وداخل فى قول الله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

وإذا ما وصلنا الحديث حول سورة المائدة لنعرض منها نماذج لمن حكم بغير ما أنزل الله فحكم عليه بالكفر والافتراء والظلم فسنرى أن السورة تتحدث عن أهل الكتاب وأن الله جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » .

ويناديهم رب العزة فيقول : « يا أهل الكتاب لستم على شيء حتي تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا و كفراً فلا تأس على القوم الكافرين » .

وكما سمي الله أهل الكتاب مشركين وكافرين سمى هؤلاء الذين اخترعوا شريعة من عند أنفسهم فى حياتهم الاجتماعية كفاراً فقال : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام .. ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » ..

ولا ننسي ما أوردته سورة الأنعام وهى تتحدث عن المشركين وعاداتهم وتقاليدهم.. وهؤلاء الذين اصطنعوا لهم تلك العادات والتقاليد فكلفتهم الشيء الغالى من حياتهم واستمعوا لهذه الآلهة التى شرعت لهم هذه الأحكام فسووا خالقاً بمخلوق .. فبئس مايفترون .

وهذا حديث عدى بن حاتم يضيف تأكيداً جديداً لهذا النوع من الشرك ويبين بوضوح أن الاتباع فى الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج صاحبها من الدين :

« أخرج الترمذى باسناده عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغه دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته فأعطاها فرجعت إلي أخيها فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم وفى عنقه صليب من فضة والنبى — ﷺ — يقرأ هذه الآية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وقال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : بلى . إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا الحرام فاتبعوهم وذلك عبادتهم إياهم .

ولا أظن إلا أنه بعد بيان لفظ الشرك ودراستنا للايات التى اخترناها نماذج للمقارنة والتحليل قد تبين لنا : ماذا يراد بالشرك : وأن الشرك بالله : بعبادة إله أو آلهة أخرى غير الله أو معه من بشر أو حجر أو كوكب أو غيره وهذا كالشرك بالله حين يتقدم الإنسان بالطاعة والقربى لغير الله وهما كالشرك بالله فى اتخاذ مصدر للتشريع والتقنين غير المصدر الإلهى .. كل هذه الثلاثة تتساوى فى الخروج من طاعة الله ووحدانيته إلى أرباب مختلفة.. وكلها فى حاجة إلى الإنابة إلى الله والاستجابة إلى هذا النداء العلوى الجميل :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم — ألا تشركوا به شيئاً » .



الوصية الثانية :

« وبالوالدين احسانا »

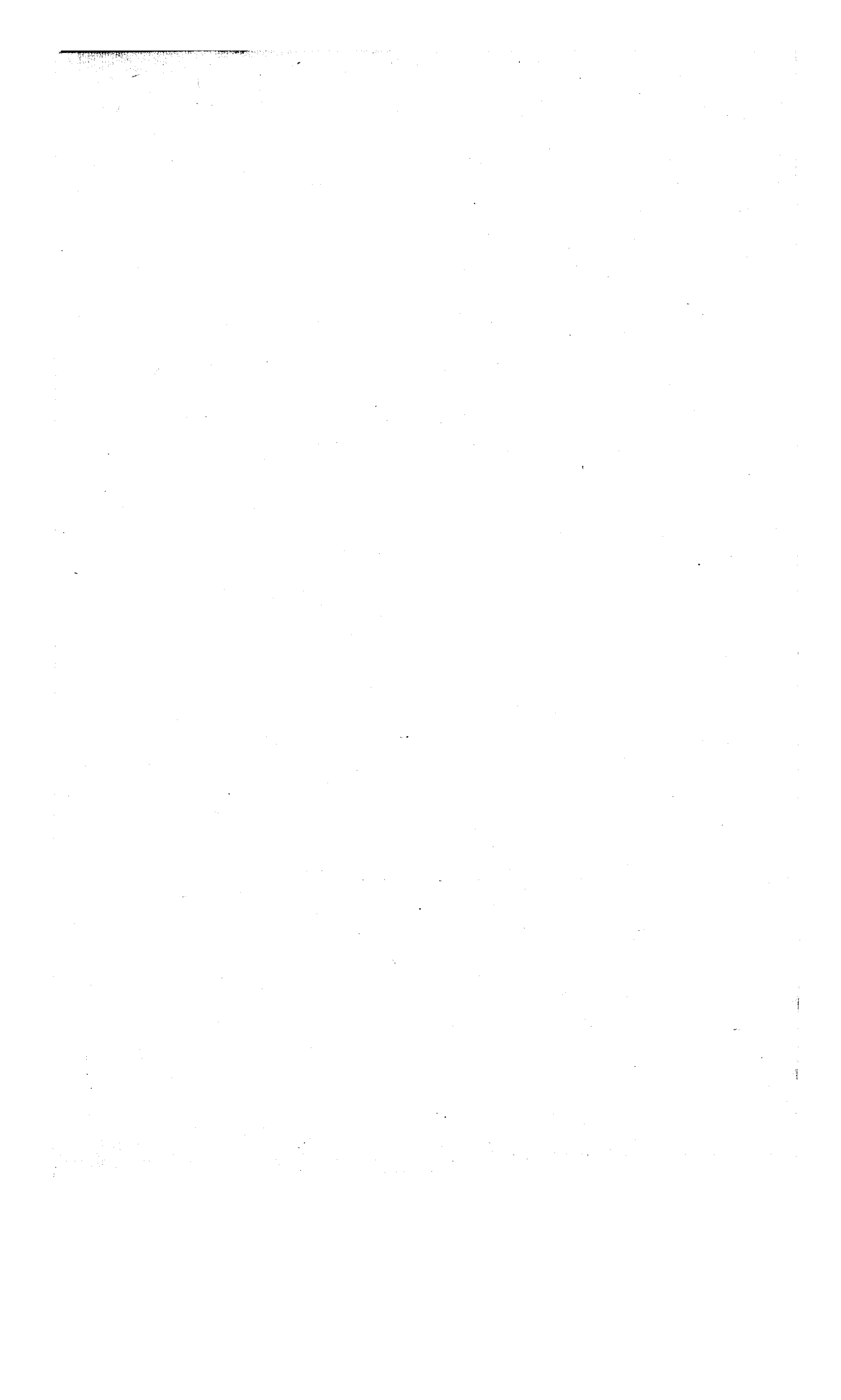
---

١ — ماذا يقصد بالإحسان ؟

٢ — لماذا طالب بالإحسان ولم يكتف بالنهى عن الإساءة ؟ ؟

٣ — فضل الوالدين — وما ورد فى ذلك .

٤ — بر الوالدين ليس خاصاً بحياتهما ولا بالمسلمين .



١ – ماذا يقصد بالإحسان؟؟

الإحسان أرقى درجات الأعمال وأعلاها منزلة ، وهو وليد الإيمان وقمة الإسلام ، يتضح ذلك من حديث جبريل وهو يسأل رسول الله ﷺ : فقد سأل عن الإسلام فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ، وسأل عن الإيمان فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . وسأله عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك .

فالإحسان أداء العمل مع المراقبة الكاملة لله طمعاً فى ثوابه وخوفاً من عقابه وحياء من عظمته ومراعاة لشكر نعمته ووفاء لحق ربوبيته . وهو بذلك صلة قوية متينة تنبع من قلب طاهر يفيض رحمة وإخاء وحباً وعطفاً . وهذا الإحساس النبيل يربط الإنسان بالخالق جل وعلا فيعلم أن بر الناس بر لله . ففى الحديث القدسى عن رب العزة : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى فيقول ابن آدم : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلان مرض فلم تعده أما إنك لوعدته لوجدتنى عنده . يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني . فيقول يارب : كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلان استطعمك فلم تطعمه أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى . فيقول : كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى » (١) .

والله لا يحتاج إلى بر أحد ولكنه جعل الخلق عياله . وبرهم بره . والإحسان

---

(١) رواه مسلم .

والتصدق على الفقراء قرضاً له تعالى : فيقول القرآن الكريم : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم »[١] .

والإحسان لا يقف مضمونه عند حد من الحدود بل هو متنوع الصور والأشكال ومتعدد الطرق والمقاصد . والقرآن الكريم يقدم الكثير من الأمثال على ذلك : فعندما تقرأ قوله تعالى : « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين »[٢] .

فالإحسان هنا : طاعة الله وجزاؤها المغفرة والثواب وزيادة الأجر .

وحينما نتدبر قوله تعالى : « وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون »[٣].

ندرك أن الإحسان هنا بأجلى معانيه وأنبل صوره . فى معاملة الناس معاملة حسنة وذلك بالقول الطيب والكلام اللين الذى يؤلف بين القلوب وفي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

وحينما نقف عند قوله تعالى : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »[٤] .

نعرف أن المراد بالإحسان هو الإنفاق وبذل المال فى سبيل الله والمحافظة على النفس من مهلكات الشح ودفعها إلى مواطن الجهاد .

---

(١) سورة الحديد ١١/٥٧ .

(٢) سورة البقرة ٥٧/٢ .

(٣) سورة البقرة ٢ ,٨٣ .

(٤) سورة البقرة ١٩٥/٢ .

كما قد يقصد بالإحسان : المروءة وأداء الواجب عن طواعية واختيار كما فى قوله تعالى : « لاجناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين » (١) .

كذلك الإخلاص وحسن النية ومداومة فعل الخير سبب للنجاة والرفعة وكلها نابعة من الإحسان . فهذا يوسف يقول لإخوته وهم يسألونه : « أإنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (٢) .

والأنبياء .. جازاهم الله خير الجزاء لأنهم أحسنوا فى تبليغ الرسالة : « ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين » (٣) .

وهذا القرآن « هدى ورحمة للمحسنين » (٤) .

والله دائماً مع المحسنين : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » (٥) .

والإحسان سبب السعادة فى الآخرة فالله يقول عن المتقين : « آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » (٦) .

---

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٣٦

(٢) سورة يوسف ١٢ / ٦٠

(٣) سورة الأنعام ٦ / ٨٥

(٤) سورة لقمان ٣١ / ٣

(٥) سورة العنكبوت ٢٩ / ٦٩

(٦) سورة الذاريات ٥١ / ١٦ – ١٨

٢ـ لماذا طالب بالاحسان ولم يكتف بالنهى عن الاساءة ؟

من هذا نرى أن آيات القرآن ناطقة بما تحمله كلمة الاحسان من معان خالدة : جماع هذه المعانى أن الإحسان هو : الخير كله وأن الصفات التي تتوق إليها الإنسانية من الحب والعطف والرحمة والسلام والمودة الحانية والبر العطوف تحملها كلمة الإحسان . لذلك حينما أوصى الله بالوالدين لم يكتف بالنهى عن الاساءة إنما أمر بالإحسان اليهما وهو كما يقول الامام القرطبي : برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما وإزالة الرق عنهما وترك السلطنة عليهما » [١] .

وما ذلك إلا لأن للأبوين فضلا عظيما ومنزلة عالية . ورباط الأبوة بالنبوة هو رباط البشرية بأجيالها المتلاحقة إن لم يقم على الإحسان تفككت عرى المحبة والألفة وتشبت العداوات وامتلأت الصدور بالضغائن . لذلك جعل الله الوصية بالوالدين بعد النهى عن الاشراك به وإفراده وحده بالربوبية لما لهذه الصلة القوية من أثر فعال فى انتظام الحياة . فهي وحدة الانسانية تقوم بعد وحدة الإله . وهو اتجاه واحد ينبيء عن علم العليم الخبير : إذ أن حب البقاء يدفع الانسان إلى إفراغ محبته فى ذريته وولده . يرى فى نسله امتداداً لحياته وإحياء لذكراه ولهذا حذر المولى سبحانه من هذا الحب الذى كثيراً ما يطغى وينسى صاحبه دينه وربه قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » [٢] .

وقال : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » [٣] .

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن الكريم ص ١٣٢ جـ ٧ ط الثانية دار الكتب .

(٢) سورة المنافقون ٦٣ / ٩ (٣) سورة التغابن ٦٤ / ١٤

أما الأبوان : فرجعة إلى الماضى ونظرة إلى الوراء .. بذلا حياتهما من أجل إسعاد ابنهما وأحاطاه بالشفقة والمحبة وأولياه كثيراً من النعم . ولـكن كيف يذكر ذلك ؟ ؟ نعم إن فضلهما عليه عظيم وفضلهما يلى فضل الله تعـالى فى الايجاد وإخراج المرء إلى الحياة .. يقول الفخر الرازى : إن من الأشياء التي أوجبها ههنا قوله تعالى : وبالوالدين إحسانا .. وإنما ثنى بهذا التكليف لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله تعالى ويتلوها نعمة الوالدين لأن المؤثر الحقيقى فى وجود الإنسان هو الله سبحانه وفى الظاهر هو الأبوان ثم نعمهما على الانسـان عظيمة وهى نعمة التربية والشفقة والحفظ من الضياع والهلاك فى وقت الصغر[1] .

٣ — فضل الوالدين .. وماورد فى ذلك ؟

نعم يذكر الانسان ما للوالدين من فضل بالتذكير المستمر وبيان ما للوالدين من أياد وآلاء وما فى قطيعتهما وعقوقهما من عقاب وبلاء : لقد جاءت الوصية بهما بعد الوصية بعبادة الله وحده قال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » .

والقضاء هو الأمر الحازم الواجب التنفيذ .. وتعقب الآية على ما يجب القيام به إزاء الوالدين فتقول : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً » .

حتي هذه الكلمة « أف » وهى الاشارة إلى الضجر والتألم من خدمتهما والتأفف من كبرهما منهى عنها تماما .. إنمـا لابد من الكلمة الرقيقة والمعاملة الحسنة والابتسامة الحلوة « وقل لهما قولا كريماً » .

وإن الزلة ليست من شأن المؤمنين ولكن التذلل للوالدين أمر مفروض

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى جـ ٣ ص ٢٣٢ .

فى الاسلام : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وسبب هـذا كله رحمة القلب المؤمن بهذا الانسان الضعيف الذى أفنى حياته كداً وتعباً وتربية لابن وجب عليه الاحسان وحق عليه أداء الواجب .

هذا كله مع الدعاء لهما فى الحياة و بعد الممات « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » ومع الاخلاص في الخدمة وأداء هذا الحق : حق الله وحق الأبوة حتي تكون لهذا الاخلاص مغفرة الله وعونه : « ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفوراً » (١) .

وفى سورة النساء : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (٢) .

فهم أول من تجب صلته ، وهم مقدمون على القريب واليتيم والمسكين والجار وابن السبيل والرقيق .

وهذا المعنى نجده — أيضاً — فى قوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » (٣) .

وفى قوله تعالى : « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم » (٤) .

فهم أول من تجب له الوصية وأول من يجب له بذل الخير . بل ويجعل الله شكر الوالدين تالياً لشكره هو فيقول : « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير» (٥) .

---

(١) سورة الاسراء ١٧ / ٢٣ — ٢٥ (٢) سورة النساء ٤ / ٣٦

(٣) سورة البقرة ٢ / ١٨٠ (٤) سورة البقرة ٢ /٢١٥

(٥) سورة لقمان ٣١ / ١٤

وبر الوالدين من صفات الأنبياء :

فهذا يحيى عليه السلام يقول الله فى صفته : « وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً وبراً بوالديه ولم يكن جبارا عصياً » [١] .

وهذا عيسى — عليه السلام — ينطق فى المهد قائلا : « وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً » [٢] .

وهذا رسولنا يبين منزلة الوالدين ويؤكد ماجاءت به وصايا القرآن الكثيرة بالاحسان إليهما :

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لايجزى ولد عن والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه » [٣] .

وعنه عن النبي ﷺ قال : « رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة » [٤] .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : « أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الصلاة إلى وقتها .. قلت ثم أي ؟ قال : بر الوالدين .. قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله » [٥] .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : كان تحتى امرأة وكنت أحبها . وكان عمر يكرهها فقال لى : طلقها .. فأبيت فأتى عمر رضي الله عنه النبى ﷺ فذكر فقال النبى ﷺ : طلقها » [٦] .

وعن أبى الدرداء رضي الله عنه أن رجلا أتاه فقال : « إن لى امرأة وإن

(١) سورة مريم ١٩ / ١٣ ، ١٤

(٢) سورة مريم ١٩ / ٣٢

(٣) رواه مسلم (٤) رواه مسلم (٥) متفق عليه

(٦) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح .

أمي تأمرني بطلاقها فقال : سمعت أن رسول الله ﷺ يقول : الوالد أوسط أبواب الجنة فان شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه » [١] .

فهل رأيت بعد هـــذا التقدير وتلك الطاعة الواجبة على الأبناء للاباء تقديراً وطاعة ؟ ؟

وهل رأيت منزلة أعلى من الهجرة والجهاد ؟ إن الرسول عليه السلام ليرفع منزلة السعي على الوالدين إلى منزلة لا تعد لها الهجرة أو الجهاد .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أقبل رجل إلى نبى الله ﷺ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله تعالى فقال : هل لك من والديك أحد حى ؟ قال : نعم بل كلاهما قال : فتبتغى الأجر من الله تعالى قال : فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما .

وهذا لفظ مسلم وفى رواية البخارى ومسلم : جاء رجل فاستأذنه فى الجهاد قال : أحى والداك قال : نعم .. قال : ففيهما فجاهد .

وللأم منزلة خاصة فى هـــذا البر وذلك لـمـا تحملته من آلام الحمل والرضاع ولما فيها من ضعف الأمومة والأنوثة ولهذا أولاها القرآن والسنة عناية فائقة وحث الأبناء على رعايتها وأداء حقهما .. قال تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمـله وفصاله ثلاثون شهراً » [٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟؟ قال : أمك .. قال : ثم من ؟ قال : أمك .. قال : ثم من ؟ قال أمك .. قال : ثم من ؟ قال : أبوك

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

(٢) سورة الأحقاف ٤٦/١٥

وفى رواية : يا رسول الله من أحق بحسن الصحبة ؟ قال : أمك ثم أباك ثم أدناك »[١] .

وجاء وعيد القرآن لمن قطع رحمه وعيداً شديداً :

قال تعالى : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »[٢] .

وجاء بيان الرسول مؤكداً ما للوالدين من رفيع المنازل التى يجب أن تصان وتحفظ : فعن أبى بكرة : نفيع بن الحرث رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر — ثلاثا — قلنا : بلى يارسول الله قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور .. فما زال يكررها حتي قلنا : ليته سكت »[٣] .

بل إن رسولنا عليه السلام علمنا أن نتباعد عن كل ما يجرح كرامتهما أو ينزل من قدرها : « فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال . من الكبائر شتم الرجل والديه .. قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟؟ قال نعم : يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه .. وفى رواية : إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قال يارسول الله : كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه »[٤] .

---

(١) متفق عليه .
(٢) سورة الرعد ٢٥/١٣
(٣) متفق عليه .
(٤) متفق عليه .

٤ — بر الوالدين ليس خاصا بحياتهما ولا بالمسلمين

وهذا الاحسان ليس خاصاً بحياتهما ولا بالمسلمين : فرابطة المودة باقية في الحياة وبعد الممات . . بالدعاء لهما : رب أغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات » (١) .

« رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (٢) .

وبصلة أصدقائهما فقد ورد عن ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذ أمل ركوب الراحلة وعمامة يشد بها رأسه فبينما هو يوما على ذلك الحمار إذ مر به أعرابي فقال : ألست فلانا ابن فلان ؟ قال : بلى فأعطاه الحمار فقال : أركب هذا . . وأعطاه العمامة وقال : أشدد بها رأسك فقال له بعض أصحابه : غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تتروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى . . وإن أباه كان صديقا لعمر رضي الله عنه » (٣) .

وعن أبي أسيد : مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال يا رسول الله : هل بقي من بر والدي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ فقال : نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما » (٤) .

ورابطة المودة ليست خاصة بالأبوين المسلمين قال تعالى : « وإن جاهداك

---

١) سورة نوح ٧١/٢٨

(٢) سورة ابراهيم ١٤/٤١

٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أبو داود :

على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »[١].

وهذه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : « قدمت أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : قدمت أمى وهى راغبة أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك »[٢].

نعم هذه وصية الإسلام بالاحسان إلى الوالدين لتكون علاقات الانسانية ترابطاً وتراحماً لايفصل بين أفرادها اختـــلاف مذهب أو دين ولا يفكك عراها تباين لون أو جنس إنما هو البر الذي ينبع من قلب رحيم يقدر هـذه الصلة ويؤدى مالها من حقوق.. وهذا هو الدين الذى يغرس أكرم المبادىء مبادىء الرحمة والاحسان.

(١) سورة لقمان ١٥/٣١ .

(٢) متفق عليه .



الوصية الثالثة .

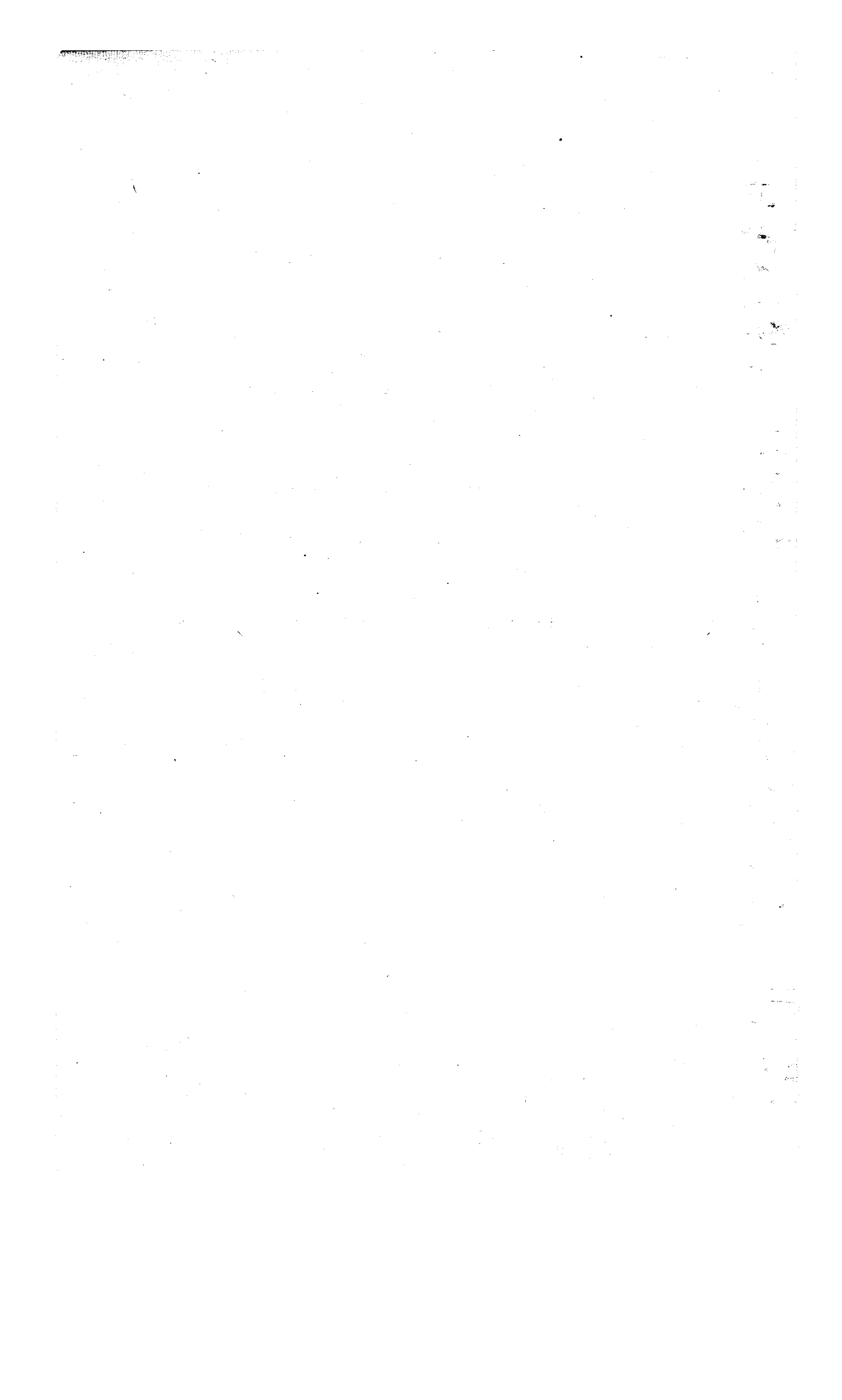
ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم

١ — معنى الإملاق .

٢ — المقصود بالقتل .

٣ — كفالة الله للارزاق .

٤ — تحديد النسل . . والعزل . . هل هما قتل للولد ؟؟



١ ـ معنى الاملاق

هذه الوصية تأتى بعد النهى عن الإشراك وبعد أن وصى الله الأنبياء بالآباء لتبين واجب الآباء تجاه الأبناء .

وفى هذه الوصية يجمل بنا أن نعرف : ما معنى الاملاق ؟ وما المقصود بالقتل ؟ وما حكم تحديد النسل والعزل ؟ وكيف تكفل الله بالأرزاق ؟

أما معنى الاملاق :

فكتب اللغة والتفاسير تقول : أملق : افتقر ، وأملقه : أى أفقره .. فهو لازم ومتعدي .

وحكى النقاش عن مؤرج أنه قال : الاملاق : الجوع بلغة لخم ؛ وذكر منذر بن سعيد أن الاملاق : الانفاق . يقال أملق ماله بمعنى أنفقه ، وذكر أن عليا رضي الله عنه قال لامرأته : أملقى من مالك ماشئت ، ورجل ملق : يعطى بلسانه ما ليس فى قلبه .. فالملق لفظ مشترك »[١] .

قال ابن جرير : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق : ولا تئدوا أولادكم فتقتلوهم من خشية الفقر على أنفسكم بنفقاتهم فان الله هو رازقكم ورازقهم : والاملاق : مصدر من قول القائل : أملقت من الزاد فأنا أملق إملاقاً وذلك إذا فنى زاده وذهب ماله وأفلس .. وينقل ابن جرير باسناده عن ابن عباس وقتادة والسدى والضحاك أن الاملاق : خشية الفقر »[٢] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٧ ص ١٣٢

(٢) جامع البيان عن تأويل أى القرآن لابن جرير الطبرى جـ ١٢ ، ص ٢١٧ — ٢١٨ .

٢ ـ المقصود بالقتل

والقتل هنا : بمعنى الوأد كما قال السيوطى .. وفى آية الاسراء كذلك قال العلامة الجمل : « قوله بالوأد : أى الدفن بالحياة .. والاقتصار عليه لأنهم كانوا يفعلونه وإلا فقتل الولد حرام مطلقاً » (١) .

ويؤكد هذا الفخر الرازى فيقول : « المراد منه (أى القتل) النهى عن الوأد إذ كانوا يدفنون أحياء بعضهم للغيرة وبعضهم خوف الفقر وهو السبب الغالب » (٢) .

وهذا ما جرى عليه ابن جرير والقرطبي فى تفسير القتل :

يقول القرطبي : « ولا تقتلوا : أى لا تئدوا — من الموءودة — بناتكم خشية العيلة فانى رازقكم وإياهم .. وقد كان منهم من يفعل ذلك بالاناث والذكور خشية الفقر كما هو ظاهر الآية » (٣) .

وابن كثير يقول : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق : وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك .. فكانوا يئدون البنات خشية العار وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار .. ولهذا ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — أنه سأل رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .. قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك ثم تلا رسول الله ﷺ : والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون .. الآية » (٤) .

---

(١) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل جـ ٢ ص ٦٢٤ .
(٢) مفاتيح الغيب للامام الفخر الرازى جـ ١٣ ص ٢٣٢
(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ٢ ص ١٨٨
(٤) تفسير القران العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ١٨٨

أما العلامة أبو السعود فيربط هذه الوصية بما قبلها ويساير جمهور المفسرين في معنى القتل فيقول : ولا تقتلوا أولادكم : تكليف متعلق بحقوق الأولاد عقب به التكليف المتعلق بحقوق الوالدين أى لاتقتلوهم بالوأد » (1) .

٣ ـ كفالة الله للأرزاق

وقتل الأولاد بالوأد — فوق مافيه من مخالفة للطبيعة البشرية المجبولة على حب الولد — إنما يرجع إلى بواعث نفسية تطيح بهذا الحب وتقطع هذه الصلة مما يجعلنا نقف هنا نتبين أسباب هذه الجريمة — وكيف عالجها القرآن قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الوأد وألوانه وطرقه ورأي العلماء فى كل لون وطريق .

إن الأسباب التى تدعو إلى الأقدام على مثل هذا العمل المتجرد من الرحمة يلخصها القرآن فى كلمة واحدة : « إملاق » .

والاملاق — كماسبق بيانه — هو الفقر فاذا ما علمنا أن الموءدة — غالبا — ما تكون أنثى تبين لنا ازدواج الجريمة .. فالبنت ضعيفة لا تستطيع الكسب ولا تساعد على مشقات الحياة وليس مما يتباهى به العربى ويتفاخر إنما كانت مباهاتهم بكثرة الأولاد الذكور .

وقد بين العلماء سبباً آخر لقتل البنات هو العار إذا ما فرطت الفتاة فى عرضها .

والسبب الأول هو ما ذكره القرآن فيدخل فيه قتل البنات وقتل الأبناء وإن كان ذلك قليلا بالنسبة للابناء كما يفهم من عبارة ابن كثير : « فكانوا يئدون البنات خشية العار وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار » .

---

(1) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١١٩

إذن فهو الفقر وعدم الثقة بما تأتى به الأيام والاضطراب النفسي من كثرة الأولاد : من أين يأكلون ؟ وكيف يرزقون ؟ وكيف يتحمل الوالد هذا العبء الثقيل ؟ ؟

وإنه خوف العار وانتهاك العرض ووقوع جريمة الزنا ! !

وكتاب الله يعالج هذه الظاهرة الخطيرة فى حاضر الانسان ومستقبله ويوجه خطابه للاغنياء الموسرين الذين يخشون وقوع الفقر كما يوجهه لأهل الفاقة ومن يعيشون فى البؤس فعلا .

ففى آية الأنعام يوجه الخطاب إلى الأباء المعسرين مبيناً لهم عجزهم وضعفهم وأن رزقهم هم فضل من الله وليس لهم جهد فيه إلا السعى والعمل . . وإذا رزق الأباء منة من الله فكيف يقتلون أولادهم وكيف يخافون عليهم الفقر ؟ ؟

فالآية — بذلك — تعالج نفسية مرضية استولى عليها ما هى فيه من شقاء وحاجة .. وغاب عنها أن قوتها وحياتها ملك لله صاحب هذا الكون كله بما فيه ومن فيه .

ولذلك تقول الآية : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم فقدمت رزق الآباء على رزق الأبناء وبينت سبب القتل وهو الفقر الواقع بهم فعلا .

وفى آية الاسراء الخطاب إلى الأباء الموسرين الذين يخافون كوارث الدهر ونكبات الزمن ويخشون الفقر .. لذلك استعمل لفظ « الخشية » وقدم ذكر الأولاد فيها فقال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

يقول العلامة الجمل : « الظاهر من قوله « من إملاق » حصول الاملاق للوالد لا توقعه وخشيته فبدىء أولا بالعدة برزق الأباء بشارة لهم بزوال ماهم فيه من الاملاق .. وأما فى آية الاسراء فظاهرها أنهم موسرون وإنما يخشون الفقر ولذلك قال : « خشية إملاق » وإنما تخشي الأمور المتوقعة

فبدىء بضمان رزقهم فلا معنى لتتكلم إياهم . . فهذه الآية تفيد النهى للاباء عن قتل الأولاد وإن كانوا متلبسين بالفقر والأخرى عن قتلهم وإن كانوا موسرين ولكن يخافون وقوع الفقر » [١] .

إنه الإيمان الذى يكسب القلب شعور الأمان ويضفى على صاحبه علامات الرضا والسكينة حين يسلم حياته كلها لله رب العالمين .

والقرآن من أجل غرس هذا الإيمان يؤكد دائماً أن مافى الكون ومن فيه بره وبحره سماءه وأرضه . غيبه ومشهوره . ملك لله ، ليس لأحد شىء فيه إلا ماكان هبة وتفضلا منه وحده . فهو واهب الحياة للأحياء وهو الذى يستطيع أن يستردها كيف يشاء وفى أى وقت يشاء .

ومن هذا المنطلق يتحرك المؤمن واثقاً أن الأرزاق جزء من هـذه القضية البديهية :

فمن أنبت النبات وأنزل الماء من السماء وأدر الضرع من بين فرث ودم وأجرى البحار والأنهار وسير السحاب ورفع السماء وتعهد الجنين فى بطن أمه وجعل هذة العوالم المختلفة مما نعلمه ومما لا نعلمه ؟

من هذا شأنه لا يعجزه — أبداً - أن يرزق جملة ملايين من الناس .

ولضعف الإنسان وإحساسه — دائماً — بما يقع تحت حسه ولجهله بما يأتى به الزمان ولخوفه من مستقبل لا يعرف ما يكون فيه — من أجل هذا يسوق الله تلك الأمثلة الكثيرة ويصرف الآيات وينوعها تطميناً لهـذا القلق والاضطراب .

وما كان تكرار مادة « الرزق » بكل مشتقاتها أكثر من مائة مرة وما تحمله كلمة الرزق من معنى البذل والعطاء والتفضل من الجانب الإلهي

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص ١٠٨ .

وما فيها من الضعف البشرى والعجز الإنسانى والاحتياج المستمر إلى رازق بيده خزائن السموات والأرض .

ما كان هذا إلا توثيقاً لهذا المعنى فى النفوس وتحريراً لها من ذل الرق الذى يفقد الانسان إنسانيته وينزل به إلى مرتبة سافلة تتنافى مع وظيفته كخليفة لله على هذه الأرض .

وهذه آيات القرآن تسوق مسألة الرزق مع غيرها من نواميس الحياة التى وضعها الله للانسان . يقول القرآن : « الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون »[١] .

ويقول : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ؟ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات . أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون »[٢] ؟

فالذى خلق وأمات وأحيا وجعل من الأنفس أزواجا ومن الأزواج بنين وحفدة هو — أيضاً — الذى رزق وهو الذى فضل بعضكم على بعض فى الرزق .

ولهذا أوصى الله نبيه أن يأمر أهله بالصلاة وأن يربيهم على تقوى الله أما رزقهم فمرده إلى الله وحده يقول القرآن : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقكم والعاقبة للتقوى »[٣] .

ويسأل المولى سبحانه فيقول : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟

---

(١) سورة الروم ٣٠/٢٠

(٢) سورة النحل ١٦/٧١ ، ٧٢

(٣) سورة طه ٢٠/١٣٢

أمن يملك السمع والأبصار؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقول الله فقل أفلا تتقون ؟ » [١] .

ويقول : « أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟؟ » [٢] .

ويسأل : « أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟؟ » [٣] .

وينكر على البخلاء بما أعطاهم الله فيقول : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ؟؟» [٤].

ويقول : « ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ؟؟ » [٥] .

ويلفتنا إلى هذه الظاهرة التى تتكرر : من يرزق هذه الدواب التى تنتشر فى أنحاء الأرض ويعلم حركاتها وسكناتها ؟

فيقول : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها .. كل فى كتاب مبين » [٦] .

ويرسم صورة حية لتلك العناية الإلهية فيقول : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » [٧] .

---

(١) سورة يونس ٣١/١٠

(٢) سورة النمل ٦٤/٢٧

(٣) سورة الملك ٢١/٦٧

(٤) سورة النساء ٣٩/٤

(٥) سورة الحديد ١٠/٥٧

(٦) سورة هود ٦/١١

(٧) سورة العنكبوت ٦٠/٢٩ – ٦٣

ويتبعها بقوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ؟ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله . قل : الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون »[١].

فالذى خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ونزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها هو — أيضاً — الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له .

ولا يدع القرآن القلب الانسانى دون أن يسكب فيه أضواء هذا القسم العظيم الذى ينتزع من كل قلب خائف حائر خوفه وحيرته فيقول : « وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون »[٢].

ويضرب مثلا صادقا لأبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام وثقته المطلقة بخالقه وكيف ذبح لضيوفه الثلاثة عجلا سميناً فقربه إليهم قال : ألا تأكلون ؟

وهذا موقفه عليه السلام من أهله حين تركهم فى صحراء مكة ولا أنيس لهم ولا زاد معهم وثوقا فى فضل الله ورزقه ولنستمع إليه يتوجه إلى ربه قائلا : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم — ربنا — ليقيموا الصلاة .. فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »[٣] .

وما ذلك كله إلا تربية رحيمة من رب رحيم !!

وبعد هذا العلاج الإلهى لا يبقى هناك مجال للخوف أو الحزن فى الحاضر

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩ ٦٣

(٢) سورة الذاريات ٥١ ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة ابراهيم ١٤ ٣٧

أو المستقبل ويصبح قتل الولد — بذلك — جريمة نكراء وخاصة إذا كانت الموءودة بنتا ضعيفة لا حيلة لها ولا قوة .

أما مسألة العار التى أوردتها كتب التاريخ والتفاسير فهى — أيضاً — تدور مع قضية الرزق ومع قضية هذا الدين كله .. وذلك أن الأمر لله يصرفه كيف يشاء .. والتربية المستقيمة واتباع الدين القويم وهدى القرآن العظيم .. كفيل ذلك كله أن يحفظ للفتاة شرفها وعفتها .

ونبقى مسألة قتل الولد : ابن أو بنت كما يقول العلامة الجمل نقلا عن الكرخى : « إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم .. فالأول ضد التعظيم لأمر الله والثانى ضد الشفقة على خلق الله وكلاهما مذموم »[١] .

٤ ـ تحديد النسل . والعزل . هل هما قتل للولد ؟ ؟

ومع هذا البيان المطمئن للقلوب والذى يربط المؤمن بمصدر القوة والرزق من واجبنا أن نتتبع الوسائل الكثيرة لمنع الحمل لنرى رأى الاسلام فيها وهل هى قتل للولد حقاً أم لا ؟ ؟

أما طرق منع الحمل فهى كما ذكرها الدكتور حامد الغوابى كالآتى :

١ — طريقة العزل : وهى الإنزال بعيداً عن المرأة .. وهذه الطريقة تسبب الأضرار البليغة للرجل وكذلك للمرأة لما تحتاج إليه من ضبط الأعصاب واحتقان أوردة الدم — وليست هذه الطريقة أكيدة لمنع الحمل .

٢ — طريقة الكيس المطاط ، وهو كيس من الكاوتشوك الخفيف يلبسه الرجل ويباع فى الصيدليات .

---

(١) الفتوحات الالهية جـ ٢ ص ٦٢٤ .

٣ — طريقة الغسل من المخالطة مباشرة .

٤ — طريقة الدبوس الذهبي وكذلك اللولبيات المعدنية وهي تدخل في عنق الرحم وتترك فيه عدة أشهر ثم تغير .. وهي طريقة لمنع الحمل وإنما تسبب الاجهاض المتكرر بما فيه من أضرار وأخطار .

٥ — طريقة حاجز المطاط : وهذا يوضع حول عنق الرحم فيعوق وصول النطفة إلى باب الرحم ويجب أن يستمر مكانه مدة ١٢ ساعة على الأقل بعد المخالطة .

٦ — طريقة الانتفاع بفترة الأمن : وهي الامتناع عن المخالطة في مدة فترة التبويض : فالبويضة تخرج من المبيض في اليوم الرابع عشر قبل حدوث الطمث وذلك في السيدات اللائي انتظمت منهن دورات الطمث .. وبما أن الحيوانات المنوية لا تعيش إلا أياما قليلة فحينئذ توجد فترة لا يمكن أن تلتقي فيها الحيوانات المنوية بالبويضة فتكون فيها آمنة من الحمل .

٧ — طريقة التعقيم : وفيها القضاء على وظيفة الاخصاب وتكون في الرجل باجراء عملية بقطع القناتين المنويتين أو ربطهما .. وفي المرأة باستئصال المبيضين أو اتلاف خلاياها بالأشعة أو بربط قناتي « فالوب » أو قطعهما .

وهناك طريقة الاجهاض بالعقاقير المحرضة للطلق أو القاتلة للجنين أو باستعمال الطرق الآلية أو باجراء عمليات طبية أو غير ذلك [1] .

هذه أهم طرق تحديد النسل أو منعه . فما رأى العلماء في ذلك وهل هذا قتل للولد ؟ ؟

يقول الامام القرطبي عند تفسيره : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » :

---

(١) مجلة لواء الاسلام : عددي جمادى الاخرة ورجب سنة ١٣٧٩ هـ من مقال للدكتور حامد الغوابي « بتصرف » .

« وقد استدل بهذا من يمنع العزل لأن الوأد يرفع الموجود من النسل والعزل منع أصل النسل فتشابها إلا أن قتل النفس أعظم وزراً وأقبح فعلا. ولذلك قال بعض علمائنا : إنه يفهم من قوله عليه السلام في العزل ذلك الوأد الخفي . الكراهة لا التحريم . وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم وقال باباحته جماعة من الصحابة والتابعين والفقهاء لقوله عليه السلام : « لا عليكم ألا تفعلوا فانما هو القدر » . أي ليس عليكم جناح في أن لا تفعلوا وقد فهم منه الحسن ومحمد بن المثنى النهي والزجر عن العزل . والتأويل الأول أولى لقوله عليه السلام : « وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء » .

قال مالك والشافعي : لايجوز العزل عن الحرة إلا باذنها — وكأنهم رأوا الانزال من تمام لذتها ومن حقها في الولد وليس ذلك للموطوءة بملك اليمين إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها إذ لاحق لها في شيء مما ذكر »[1] .

أما الامام الغزالي فيقول في الاحياء :

« اختلف العلماء في إباحة العزل وكراهته على أربعة مذاهب : فمن مبيح مطلقاً بكل حال . ومن محرم بكل حال ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها وكأن هذا القائل يحرم الايذاء دون العزل . ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرة .

والصحيح عندي أن ذلك مباح — وأما الكراهة فانها تطلق لنهي التحريم ولنهي التنزيه ولترك الفضيلة — فهو مكروه بالمعني الثالث أي فيه ترك فضيلة كما يقال يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغا لا يشتغل بذكر أو صلاة » .

والغزالي يرى أن الكراهة ليست بمعنى التحريم ولا التنزيه : « لأن إثبات النهي إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه. بل ههنا أصل يقاس عليه وهو ترك النكاح أصلا أو ترك الجماع بعد النكاح أو ترك الانزال بعد الايلاج فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب نهي» .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٧ ص ١٣٢

كما يرى الغزالى أن العزل غير الاجهاض والوأد : « لأن ذلك جناية على موجود حاصل . وله أيضاً مراتب ، وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة فى الرحم وتختلط بماء المرأة وتستعد لقبول الحياة . وإفساد ذلك جناية . فان صارت مضغة وعلقة كانت الجناية أفحش وإن نفخ فيها الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً . . ومنتهى التفاحش فى الجناية بعد الانفصال حيا » .

ويدفع الغزالى الشبهات الواردة على إباحة العزل فيقول : فان لم يكن العزل مكروها من حيث دفع لوجود الولد فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شىء من شوائب الشرك الخفى . فان النيات الباعثة على الشرك خمس :

الأول : فى السرارى وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق وقصد استبقاء الملك بترك الاعتاق . ودفع أسبابه ليس بمنهى عنه .

الثانى : الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب ودخول مداخل السوء . وهذا أيضاً غير منهى عنه فان قلة الحرج معين على الدين . نعم الكمال والتفضل بالتوكل والثقة بضمان الله حيث قال : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضاً للتوكل لا نقول إنه منهى عنه .

الثالثة : استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق . وهذا أيضاً منهياً عنه .

الرابعة : الخوف من الأولاد الإناث لما يعتقد فى تزويجهن من المعرة كما كانت من عادة العرب فى قتلهم الإناث - فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أثم بها لا يترك النكاح والوطء فكذا فى العزل . . والفساد فى اعتقاد المعرة فى سنة رسول الله ﷺ أشد — وينزل منزلة امرأة

تركت النكاح استنكافا من أن يعلوها رجل فكانت تتشبه بالرجال ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح .

الخامسة : أن تمتنع المرأة لتحرزها ومبالغتها فى النظافة . والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع . وهذا قصد فاسد . فان قلت : فقد قال النبى ﷺ « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا » ثلاثا .

قلت : فالعزل كترك النكاح — وقوله : « ليس منا » أى ليس موافقاً لسنتنا وطريقتنا وسنتنا هى الأفضل .

فان قلت فقد قال رسول الله ﷺ فى العزل : ذاك الوأد الخفى وقرأ : وإذا الموءودة سئلت . وهذا فى الصحيح .

قلنا وفى الصحيح أيضاً أخبار صحيحة فى الإباحة وقوله : الوأد الخفى كقوله : الشرك الخفى وذلك يوجب كراهة لا تحريماً .

وفى الصحيحين عن جابر أنه قال : كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل . وفى لفظ آخر : كنا نعزل فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا . وفيه أيضاً عن جابر أنه قال : إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى جارية هى خادمتنا وساقيتنا فى النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال عليه السلام : أعزل عنها إن شئت فانه سيأتيها ما قدر لها . فلبث الرجل ماشاء الله ثم أتاه فقال : إن الجارية قد حملت — فقال : قد قلت سيأتيها ما قدر لها — كل ذلك فى الصحيحين » (١) .

ولعلنا بعد استعراض رأى القرطبى والغزالى وعرضهما لأراء كثير من العلماء يمكننا أن نقول : إن الوسائل التى تفسد النطفة بعد أن وقعت فى الرحم واختلطت بماء المرأة واستعدت لقبول الحياة . مثل هذه الوسائل — مهما كان نوعها ومهما تعددت وسائلها — جناية وقتل للولد مالم ينتقل الحكم إلى

---

(١) إحياء علوم الدين : للغزالى ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ .

مسألة أخرى : هى الخوف على حياة أمه وهنا لابد من ارتكاب أخف الضررين وهى مسألة تخرج من موضوع تحديد النسل إلى حياة الأم . ولابد من المحافظة عليها .

لكن ماهى البواعث الدافعة إلى تحديد النسل أو إيقافه ؟ وهل يقوم بذلك كل فرد حسب ظروفه أو تشرف عليه الدول وتدعو كل دولة أفراد شعبها لهذا الأمر ؟

يقول علماء الغرب والأمريكان : إن سكان العالم فى القرن الثامن عشر كانوا ألف مليون ، ويقدرون النسبة لتزايد السكان فى العالم بـ ٢٥ و/٠ بخمسة وعشرين فى الألف وبتقدم الوعى الصحى وأساليب المحافظة على الصحة ستقل نسبة الوفيات وترتفع نسبة الزيادة . وإذا تركنا هذا العامل الإضافى فانه رغم ذلك يمكن القول بأن العالم عام ألفين ميلادية سيكون ستة آلاف مليون وفى سنة ألفين وخمسين سيكون تعداده ثلاثة عشر ألف مليون .

وقد انتشرت دعوة هؤلاء فى البلاد العربية والإسلامية رغم قلة عدد الكثير من دولها حتى وجدنا دعوة تحديد النسل فى سوريا — مثلا — مع أن سكانها أقل بكثير من مواردها ففيها نحو ١٢ مليون فدان تحتاج إلى أيد لكى تعمل .

وفى العراق وفيه ١٨ مليون من أخصب أرض الدنيا وكان سكانه فى عهد الرشيد بين الأربعين والخمسين مليونا .

وفكرة دول الاستعمار من نشر هذه الدعوة : أن زيادة السكان فى الشعوب المتخلفة ستنتهى إلى إحدى نتيجتين : إما أن يضعوا أيديهم على مواردهم وذلك ليس فى مصلحة هذه الدول المسيطرة . وإما أن يكثر الفقر ويفشو فيهم ويكون بذلك التمهيد للشيوعية . ولهذا تشجع أمريكا هـــذا المشروع وتنفق عليه وترصد له فى ميزانيتها الأموال الضخمة .

ومما يدل على أن دول الإسلام هى المقصودة بهذه الدعوة هو : أن دول

الغرب تشجع أفرادها على ازدياد النسل وتتجه في نفس الوقت إلى أمرين يبدو أن بينهما تناقضا مع أن الغاية منهما واحدة :

الأمر الأول : تحديد النسل ومؤداه الاقلال من عدد السكان ما أمكن .

الأمر الثاني : التلقيح الصناعي ومؤداه الاكثار من السكان ما أمكن .

وهذا الظاهر متعارض بلا ريب لكن إذا بحثنا عن القصد والغاية نجد الاتجاهين ينتهيان إلى نتيجة واحدة :

لأن تحديد النسل يقصد به إفناء المسلمين والتلقيح الصناعي يقصد به حل الأسرة الاسلامية . وفى حلها سير أيضاً إلى الفناء .

وهذه الدول التي ترصد في ميزانيتها الأموال لترويج مثل هذه الدعوة خوفا من المجاعة على العالم تلقي ببعض القمح فى البحار حتى لا ترخص أسعاره.

إن تحديد النسل أو تنظيمه أو إيقافه مسألة فردية يبيحها الدين فى ظروف خاصة وليست من المسائل العامة التي ترصد لها الأموال وتروج الدعايات خوفا على مستقبل أمة من كثرة نسلها ووقوعها فى المجاعات . فما هكذا يكون أهل الإيمان .

وما ادعاه الغزالى من جواز تحديد النسل خشية الفقر لا معنى له فالغزالى يقول : « حفظ المال وادخاره مع كونه مناقضاً للتوكل لا نقول إنه منهى عنه » .

ويفرق بين العزل وقتل الولد . ونحن نوافقه على أن هناك فرقا بين منع الحمل والقتل ولكن ما المقصود منهما ؟

وماذا يقصد الله من هذا النهى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » ؟ وهل الدعوة إلى تحديد النسل إلا مخالفة صريحة لهذا النهى الصريح مع ما يحمله من تعليل لسبب القتل ؟ ؟

وماسبق أن أوضحناه من كيفية تحرير الإسلام لهـذه النفوس المريضة دليل على بطلان دعوة نبتت فى بيئة غير إسلامية ليطعن بها الإسلام .

وما أحوجنا إلى استجابة هـذا النداء الرفيع نعرف من المنادى ما حـرم وما أحل . ولو أصخنا السمع وفتحنا القلوب لوجدناه ترتيلا هاديا متجاوبا مع الفطرة يقول :

« قل تعالوا : أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

الوصية الرابعة :

قوله تعـالى :

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن »

---

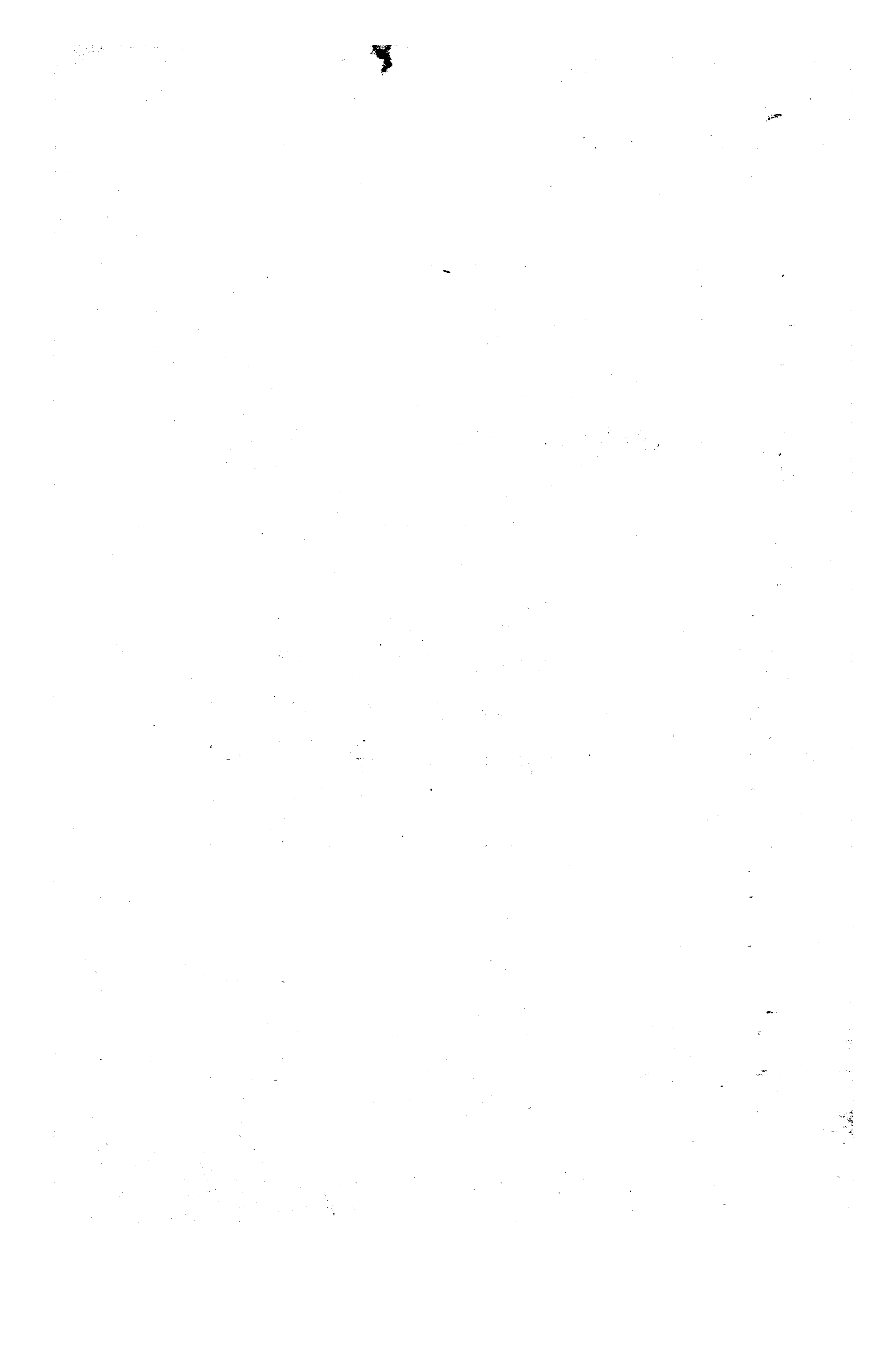
١ — ماذا يقصد بالفواحش ؟

٢ — ما معنى : ما ظهر منها وما بطن ؟

٣ — لمـاذا نهي عن الإقتراب من الفواحش ؟

٤ — المجتمع المسلم مجتمع عفيف طاهر ! !

٥ — بواعث الفاحشة وكيف نقضي عليها ؟



١ - ماذا يقصد بالفواحش ؟

هـذه الوصية الرابعة تأتى فى موضعها المناسب لتبين الأساس الذى يقوم عليه المجتمع المسلم كله . إذ بعد أن بين الله حق الوالدين وحق الأبناء وربط ذلك كله بالقاعدة الأصلية من توحيد الله وعدم الاشراك به ساق هذه الوصية نوراً هادياً لأمة ترتاد الطريق وتقود العالم إلى الخير وتشهد على الناس جميعاً. وأمة هذه مكانتها لا تحيا في أوحال الشهوات ولا تنبت فى مرتع الفواحش ولا تتقدم قيد أنملة وهذا الانحلال ينخر فى عظامها فيصيبها بالضعف والعجز.

ولكن ماذا يقصد بالفواحش ؟

ولمـاذا أتت بصيغة الجمع « فواحش » ؟

وما هى الفواحش الظاهرة والباطنة ؟

وما المعنى المقصود من النهى عن اقترابها ؟

وما هى صورة المجتمع المسلم كما أنشأه الإسلام ؟

وما هى بواعث الفواحش وهل من سبيل للقضاء على هذه البواعث ؟

كل هــــذه الخواطر تتوارد ونحن نتلوا فى خشوع قول الله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

* * *

يقول صاحب القاموس المحيط : « الفاحشة » الزنى وما يشتد قبحه من الذنوب وكل مانهي الله عز وجل عنه . والفحشاء البخل فى أداء الزكاة . والفاحش : البخيل جداً والكثير الغالب ، وقد فحش ككرم فحشا ، ورجل فاحش وفحاش وأفحش قال الفحش وتفاحش : أتى به وأظهره [١].

---

(١) القاموس المحيط جـ ٢ ص ٢٨٢

وإذن فالفاحشة كما يقول أهل اللغة : كل شيء جاوز حده . وهي بذلك تشمل كل الكبائر وهي تجاوز لحدود الله « وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » [١].

« تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعصي الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » (٢) .

وإذاً فكل تعد لوصية من هـــذه الوصايا فاحشة : الاشراك بالله فاحشة الفواحش . عقوق الوالدين . قتل الأولاد . قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق أكل مال اليتيم .. الخ . كلها تجاوز للحد وفاحشة يجب البعد عنها ولكن ماذا يقصد بالفواحش هنا ؟

يرى الفخر الرازى أن الأولى أن يبقى اللفظ عاما كسائر القرآن لا يخصص بنوع معين من الفواحش فيقول : « الأول ألا يخصص هذا النهى بنوع معين بل يجرى على عمومه في جميع الفواحش ظاهرها وباطنها : لأن اللفظ عام والمعنى الموجب لهذا النهى وهو كونه فاحشة عام أيضاً . . ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل » (٣) .

ويتفق الرازى فى ذلك مع القرطبي فى أن اللفظ عام لا يخصص لفاحشة :

يقول القرطبي : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن : نظيره : وذروا ظاهر الإثم وباطنه » فقوله : «ماظهر» نهى عن جميع أنواع الفواحش وهى المعاصى . . « ومابطن » ما عقد عليه القلب من المخالفة . . وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ماجعلت له من الأشياء »(٤) .

---

(١) سورة الطلاق ٦٥ ١

(٢) سورة النساء ٤/١٣ ، ١٤

(٣) مفاتيح الغيب ص٢ ص ٢٣٣

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٧ ص ١٣٣

وهذا مارآه الأمام الطبرى إذ يقول :

« يقول تعالى ذكره : ولا تقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة التى هى علانية فيكم لا تناكرون ركوبها والباطن منها الذى تأتونه سراً فى خفاء لاتجاهرون به فان كل ذلك حرام

ويرد على من خصص الفواحش بالزنا فيقول : « قيل ولا تقربوا ماظهر من الفواحش وما بطن لأنهم كانوا يستقبحون من معانى الزنى بعضاً دون بعض وليس ما قالوا من ذلك بمدفوع غير أن دليل الظاهر من التنزيل عن النهى عن الظاهر كل فاحشة وباطنها ولا خبر يقطع الغدر بأنه عنى بعضاً دون جميع . . وغير جائز إحالة الظاهر من كتاب الله إلى باطن إلا بحجة يجب التسليم لهـا ».

وذكر الطبرى روايات تؤيد من قال بأنها فاحشة الزنا وذلك بأسانيده عن السدى والضحاك وابن عباس وروايات أخرى تؤيد من قال بالعموم وذلك بأسانيده عن قتادة ومجاهد . . »[١]

ولكن مارآه الفخر الرازى والقرطبى والطبرى لا يتفق مع مدلول الآيات والوصايا فى هذ الموضع .

إذ كل واحدة تحمل نهياً عن شيء أو أمراً بشيء والأولى أن يخصص هذا النهى بجريمة الزنا .

يؤيد ذلك قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساءسبيلا[٢]

يقول أبو السعود : « ولا تقربوا الفواحش كقوله تعالى : ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة . الآية [٣] .

---

(١) تفسير الطبرى : جامع البيان ج ١٢ ص ٢١٨

(٢) سورة الإسراء ١٧ ٣٢

(٣) سورة النساء ٤ ٢٥

ويؤيده تسمية القرآن لهذه الجريمة بالفاحشة قال تعالى :

واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا[١].

يقول الزمخشرى : « والفاحشة الزنا لزيادتها فى القبح على كثير من القبائح . . [٢]

ويقول رب العزة فى بيان حد من ارتكب الزنا من الإماء :«فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب »[٣]

فقد ظهر من هذه الأدلة أن قولهم : « التخصيص على خلاف الدليل » « ولا خبر يقطع العذر » «وغير جائز إحالة الظاهر من كتاب الله إلى باطن إلا بحجة يجب التسليم لها » قولهم هذا في غير موضعه بعد مارأينا من آيات الكتاب التى تطلق على هذه الجريمة فاحشة وما عرفنا من أن كل ما نهى الله عنه فى هذه الآيات فاحشة وفى مقدمة ذلك الشرك أفحش الفواحش .

ولما كان المقام لتعديد أمور بعينها لزم أن تكون هذه جريمة بعينها ينهى عنها الذكر الحكيم : وما تلك الجريمة إلا فاحشة الزنا . يقول أبو السعود : « ومن هنا تبين أن حمل الفواحش على الكبائر مطلقاً وتفسير ما ظهر منها وما بطن بما فسر به ظاهر الاثم وباطنه فيما سلف من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه . . »[٤]

وربما أتى هذا الوهم من جمع كلمة الفواحش وأكثر هذا الوهم قوله بعدها: ما ظهر منها وما بطن . غير أن جمعها ووصفها بما وصفت به يفيد أمراً على جانب كبير من الأهمية .

---

(١) سورة النساء ١٥/٤

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٣٨٥

(٣) سورة النساء ٢٥/٤ (٤) تفسير أبى السعود جـ٢ ص١٤٩

ذلك أن هذه الجريمة ذات مقدمات ومغريات وملابسات كل منها فاحشة مثلها : فالتبرج والتهتك والاشارات والحركات والضحكات الفاجرة والاختلاط المثير والتزين والاستثارة . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة وكلها مما يجب الابتعاد عنه والاقتراب منها يهلك المجتمعات ويحطم قوامها ويصرف نشاطها البناء إلى نشاط هدام قوامه . إستثارة غرائز الشهوة وإشعال لهب الشيطان مما لا يستطيع مقاومته إلا قلة نادرة من الناس هي تربت في أناة وصبر على موائد كتاب الله فاختلط هذا الكتاب بحسها ووجدانها بحيث لا يؤثر فيها هذا الفساد المطبق من حولها وداعي الشر المنادي لها في كل لحظة تمر في ليل أو نهار .

٢ - ما معنى « ما ظهر منها وما بطن » ؟

والإسلام في تربيته نوع فريد لا يدانيه نظام بشري مهما كانت قيمته إلا أن يكون هذا النظام قد استلهم روح هذا الدين .

ولننظر إلى نهيه عن فاحشة الزنا : كيف جعلها عدة فواحش تنفيراً من مواقعة هذه الجريمة واستبشاعاً لمقدماتها وعلماً من صاحب هذا الدين بضعف هذا المخلوق البشري إذ ليس من الحكمة أن ينهى عن الزنا ويدعو إلى الفتنة ويبيح التبرج والاختلاط والنظرات المثيرة .. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!

وإذا كانت قوانين البشر تراقب الظواهر فلا تستطيع ذلك بما لها من قوة السلاح والرجال فان نظام القرآن يجعل الرقابة مختلطة بالإحساس والشعور . تجري من الإنسان مجرى الدم في العروق . « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »[1] .

وإذاً فهو الاخلاص الذي يقوم عليه بناء الاسلام كله . إخلاص المشاعر والقلب والاحساس . إخـــلاص العمل والنية . تطهير الظاهر والباطن .

---

(١) سورة ق ٥٠ ١٦

الابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن : « فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص » (١).

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (٢).

إنها روعة التربية القرآنية فى إحصائها كل نفس يخرج وكل لمحة وإشارة وكل نبضة قلب أو خفقة فؤاد.

وفى غرسها لشجرة العزة الإنسانية حيث يتحرر الإنسان من عبودية الناس إلى عبودية رب الناس.

يقول الفخر الرازى : « وفى قوله : « ما ظهر منها وما بطن » دقيقة : وهى أن الإنسان إذا احترز عن المعصية فى الظاهر ولم يحترز عنها فى الباطن دل على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس. وذلك باطل لأن من كان مذمة الناس عنده أعظم وقعاً من عقاب الله ونحوه فانه يخشى عليه من الكفر. ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً دل على أنه إنما تركها تعظيما لأمر الله تعالى وخوفا من عذابه ورغبة فى عبوديته » (٣).

وإذا كنا قد رجحنا أن المراد بالفواحش : فاحشة الزنا وإنما جمعها لما لها من مقدمات : كل منها فاحشة وحدها فقد آن لنا أن نسيرمع بعض أقوال العلماء لنسألهم : ما هى الفواحش الظاهرة وما هى الفواحش الباطنة ؟

قال ابن عباس : كانوا يكرهون الزنا علانية ويفعلون ذلك سراً فنهاهم الله عن الزنا علانية وسراً » (٤).

---

(٢) سورة الزمر ٢,٣٩ ، ٣

(٣) سورة البينة ٥,٩٨

(٤) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٢٣٣

(٥) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٢٣٣

ويوضح ذلك أبو السعود فيقول : « ما ظهر منها وما بطن » أى ما يفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم . وما يفعل منها سراً باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم » [١] .

وينقل لنا الامام الطبرى جملة من آراء السابقين بأسانيده فيقول : « عن الضحاك قال : ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن : كان أهل الجاهلية يسرون بالزنا ويرون ذلك حلالا ما كان سراً فحرم الله السر فيه والعلانية » .

وهذا رأى ابن عباس كما نقله الفخر أيضاً .

« وفى رواية أخرى عن الضحاك : أن ماظهر : الخمر ، وما بطن : الزنا .

أما قتادة فانه يعرفنا أن ما ظهر منها وما بطن : سرها وعلانيتها . ومجاهد يرى أن ما ظهر : جمع بين الأختين وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده . وما بطن : الزنا » [٢] .

٣ ـ لماذا نهى عن الاقتراب من الفواحش ؟

... نعم ما ذكره هؤلاء الأجلاء كله من الفواحش : الجمع بين الأختين وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده وشرب الخمر . ولكنها غير مقصودة فى هذه الآية كما يتضح ذلك من كتاب الله .

إذ إن النهي عن الخمر ونكاح ما نكح الأباء والجمع بين الأختين لم يكن ذلك إلا فى الآيات المدنية وسورة الأنعام مكية في مجموعها . فاذا اعتبرنا آيات الوصا الثلاثة مدنية كما ورد ذلك فى المصاحف التي بين أيدينا فان سياق الآيات وتتابع الوصايا التى تحمل كل منها وصية معينة يفيد اقتصار الفواحش هنا على فاحشة

(١) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ١٤٩

(٢) جامع البيان للطبرى ج ١٢ ص ٢٢٠

الزنا وما يسبقها من جرائم كل منها فاحشة بعينها . وبذلك يبقى نهى القرآن عن الاقتراب من الفواحش بجميع ألوانها لما كان منعاداتهم فى اتخاذ الأخدان والزنا سراً مع ما كان يعج به المجتمع من فساد ينشأ في كل مجتمع يبتعد عن تعاليم السماء وتبدو صورته فى ارتكاب هذه الجريمة فى الحوانيت علنا . فأراد الله تطهير هذا المجتمع فى صورته العامة وتطهيره فى ضمائر الأفراد وسرائرهم لذلك نهى عن الاقتراب من الفواحش .

إذ إن داعى هذه الجريمة قوى يجتذب إليه الكثير وطريقها محفوف بالمخاطر « ومن حام حول الحمى يوشك أن يواقعه » فمجرد الاقتراب منهى عنه وذلك لعلم الله بضعف هذا الإنسان عند مقاومة إغراء الشهوة وفتنة الشيطان . يقول أبو السعود : « تعليق النهى بقربانه إما للمبالغة فى الزجر عنها لقوة الدواعى إليها وإما لأن قربانها داع إلى مباشرتها » [١] .

والمجتمع الذى تنتشر فيه الفاحشة مع مقدماتها — وكلها فواحش — مجتمع يقتل نفسه ويقضي على حياته . لذلك رأينا هذا النهى يأتى بين أمرين كل منهما قتل لشيء : الأول نهى عن قتل الأولاد . والثانى : نهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .

يقول أبو السعود : «وتوسيط النهى عنها (يقصد فاحشة الزنا) بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن القتل مطلقاً — كما وقع فى سورة بنى اسرائيل — باعتبار أنها مع كونها فى نفسها جناية عظيمة فى حكم قتل الأولاد . فان أولاد الزنا فى حكم الأموات وقد قال ﷺ فى حق العزل إذ ذاك وأد خفى » [٢] .

(١ ، ٢) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١٤٩

٤ ـ المجتمع المسلم مجتمع عفيف طاهر

ولقد أراد الإسلام أن يقيم مجتمعاً عفيفاً طاهراً بعيداً عن هذا الموت البطيء وذلك القتل الذى يهلك المجتمعات فكانت تعاليمه فى هذا الشأن ثورة اجتماعية ردت للانسان اعتباره وأرجعت له كرامته وحفظه من عوامل الفناء والانهيار والفلق والاضطراب .

وقبل أن تنهى المسلم عن ارتكاب الزنى وتفرض عليه إقامة حده وضعت بين المسلم والجريمة سداً منيعاً من الطهارة والعفة وحمته من الإثارة والاستثارة ووفقت له بين مطالب الجسد والروح وأعطته الانسجام والتوافق بين تعاليم إلهه وشهوة جسده وأشبعت فيه كل رغبة ولم تترك له باباً يؤدى إلي مواقعة هذا المحظور إلا وسدت منافذه فانطلق هذا المجتمع من عقالة متحرراً من رق الشهوة واضعاً وراء ظهره أغلال الشيطان وسار المسلم الأول يعمر هذا الكون كله بالحق والخير والعدل والطهر والعفاف .

إن الله الذى حرم الزنى هو الذى حرم النظرة المشبوهة .

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكي لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن

وهو الذى حرم التبرج :

« ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن علي جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن . وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون[١]

---

(١) سورة النور ٢٤/٣٠ ، ٣١

فما بالنا رنساؤنا لم يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن فحسب إنما خرجن عاريات فتنة وخروجاً عن دين الله . ! !

والله هو القائل : يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أولى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً [١]

وهذه أمرأة تشهد على ما فى هـــذه الفاحشة : فاحشة التبرج من خطورة وفساد .

تقول السيدة حرم الأستاذ محمد رضا فى كتابها « التبرج » .

« المرأة المتبرجة شرارة للزناد فهي مجرمة تغوى بجمالها العباد ونكبة تنشر من حولها الفساد فالويل لها . إنها شيطان رجيم يأخذ الرجال إلى نار الجحيم فلو احتشمت المرأة واجتنبت التبرج والخلاعة فى كلامها ومشيتها لما انتشر هذا الفساد والشر المستطير . إذ من المحال أن تصان الأعراض والأسر إلا بالاحتشام والغض من البصر [٢] .

وأشد من التبرج الاختلاط الذى عم خطره وانتشر ضرره وظهر ما فيه من إهلاك وقتل للمجتمعات كما يقول القرآن. والاسلام لم يحرم الاختلاط فحسب إنما حرم التكسر فى القول والخضوع فيه وجعله وسيلة لإثارة القلوب المريضة . يقول الله تعالى مخاطباً نساء النبي عليه السلام : « يا نساء النبي لستن كأحد النساء إن اتقيتن . فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا » .

وأمرهن بالعكوف فى البيوت فوظيفة البيت لا تعدلها وظيفة يقول سبحانه « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .[٣]

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ / ٥٩

(٢) كتاب التبرج للسيدة الفاضلة نعمت صدقى حرم الأستاذ محمد رضا

(٣) سورة الأحزاب ٣٣ / ٢٢ ، ٢٣ .

وهذه صورة توضحها كاتبة لمست ما فى هذه الفواحش من إهلاك للمجتمعات وانهيار لها . والكاتبة ليست مسلمة وإنما علمتها التجربة وصدمها الواقع فأرسلت هـذه الصيحة تنادى بالقضاء على هـذا الفساد . إنها الكاتبة الشهيرة « اللاديكوك » .

تقول «إن الاختلاط يألفه الرجال ولهذا طمعت المرأة فيما يخالف فطرتها وعلى قـدر كثرة الاختلاط تكون الكثرة من أولاد الزنى . وهنا البلاء العظيم على المرأة : فالرجل الذى علقت منه يتركها وشأنها تتقلب على الفـاقة وتتضجع على الشقاء والعنـاء وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد بل والموت أيضاً .

أما الفاقة : فلأن الحمل وثقله والوحم ودواره من موانع الكسب الذى تحصل به على قوتها .

وأما العناء : فهو أن تصبح شريرة فاترة حائرة لاتدرى ماذا تصنع بنفسها !

وأما الذل والعار : فأى عار بعـد ضياع شرفها وإهدار المجتمعات لكرامتها ؟ !

وأما الموت فكثيراً ما تقتل المرأة نفسها بالانتحار وغيره ، هذا والرجل لا يلم به شيء من ذلك !! » .

ثم قالت : « أما آن لنا أن نبحث عما يخفف إذا لم نقل ما يزيل هـذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية ؟؟ أما آن لنا أن نتخذ طرقاً تمنع قتل ألوف الألوف من الأطفال الذين لا ذنب لهم ؟؟

ثم قالت : أيها الوالدان لا يغرنكما بعض دريهمات تكسبها بناتكما باشتغالهن فى المعامل ونحوها ومصيرهن إلى ما ذكرنا ، علموهن الابتعاد عن الرجال وأخبروهن بعاقبة الكيد الكامن لهن بالمرصاد ! !

لقد دلنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من حمل الزنا يعظم ويتفاقم حيث يكثر اختلاط النساء بالرجال ! !

ألم تروا أن أكثر أمهات أولاد الزنى من المشتغلات فى المعامل والخادمات فى البيوت وكثير من السيدات المعرضات للأنظار ؟ ؟ ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية للاسقاط لرأينا أضعاف ما نرى الآن ! !

لقد أدت بنا هذه الحال إلى حد من الدناءة لم يكن تصورها فى الإمكان حتى أصبح رجال مقاطعات من أوربا لا يطلب البنت زوجة ما لم تكن مجربة أى عندها أولاد من الزنا ينتفع بشغلهم .. وهذا غاية الهبوط بالمدنية فكم قاست هذه المرأة من مرارة الحياة حتى قدرت على كفالة الأولاد .. والذى علقت منه لا ينظر إلى هؤلاء الأولاد ولا يتعهدهم بشيء .. ويلاه من هذه الحال التعسة ! ! ترى من كان معيناً لها فى الوحم ودواره والحمل وأثقاله والوضع وآلامه والنصال ومرارته .. !!(١).

أرأيت كيف تنقلب المفاهيم والقيم فلا يطلب الرجل فى بلاد تدعى الحضارة إلا بنتا مجربة لها أولاد من الزنا ؟؟ وكيف أدى الاختلاط إلى هذا الفساد وتقويض أركان المجتمع ؟ ؟

والمجتمع المسلم يقدر عمل المرأة فى بيتها ويجعله معادلا لما يقوم به الرجال من جمع وجماعات وجهاد فى سبيل الله فيعطى المرأة المسلمة حقها كاملا ثقة منه بما فى ذلك من الخير لها وللمجتمع .

وفدت أسماء بنت يزيد الأنصارية التى لقبت بخطيبة نساء العرب ورسولتهن إلى رسول الله ﷺ وكان فى جمع من أصحابه فقالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! ! أنا وافدة النساء إليك .. إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبالهك ، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم .. وأنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وشهود الجنازات والحج بعد الحج وأفضل من

---

(١) الإصلاح المنشود للاسرة للأستاذ الشرباصى الحسنين الطبعة الثانية ص ١٩٧ وما بعدها .

الجهاد فى سبيل الله عز وجل وإن أحدكم إذا خرج حاجا أومعتمراً أومجاهداً حفظنا لكم أولادكم وأموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفنشاركم فى هذا الأجر والخير ؟؟.

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل رأيتم مسألة امرأة قط أحسن من مساءلتها فى أمر دينها ؟

فقالوا : يارسول الله ماظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا .

فالتفت النبي ﷺ إليها فقال : « أفهمى أيتها المرأة واعلمى من خلفك من النساء إن حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ذلك كله » . فانصرفت المرأة وهى تهلل حتي وصلت إلى نساء قومها وعرضت عليهن ما قال لها الرسول ﷺ ففرحن » (١) .

إنه المجتمع المسلم العفيف الطاهر الذي قضى على عوامل هذا الفساد وألغى ظواهر الفواحش وبواطنها من نفوس أتباعه ويسر لهم طريق العفة وأمرهم بها فقال : « وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتي يغنيهم الله من فضله » (٢) .

وأرشدهم إلى طريقها فقال : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (٣) .

وقال الرسول عليه السلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » (أى وقاية يقطع بها أثر الشهوة) (٤) .

---

(١) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبد البر — وهو مع الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٣٣ ط مصطفى محمد سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م

(٢) سورة النور ٢٤ / ٣٣

(٣) سورة النساء ٤ / ٢٥

(٤) متفق عليه .

ويحرم الخلوة بالأجنبية :

فعن جابر أن النبي ﷺ قال :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم منها فان ثالثهما الشيطان »(١) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : يارسول الله أرأيت الحمو ؟ قال : الحمو : الموت »(٢).

قال النووى تعليقاً على هذا الحديث : المراد بالحمو الأخ وابن الأخ ونحوهما مما يحل لها تزوجه لو لم تكن مزوجه . وقد جرت العادة بالتساهل فيه فيخلوا الرجل بامرأة أخيه فشبهه بالموت . وهو أولى بالمنع من الأجنبي فالشرك به أكثر والفتنة به أمكن لوصوله إلى المرأة وخلوته بها من غير نكير عليه بخلاف الأجنبي(٣) .

أرأيت صورة أنقى وأطهر من صورة مجتمع الإسلام الذى قضى على هذه الفواحش ونهى عن الاقتراب منها ؟ ؟ فهى مهلكات قاضيات على كل مروءة ورجولة باعثات إلى كل تفكك ودمار وضياع .

---

(١) رواه أحمد

(٢) رواه أحمد والبخاري والترمذى

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٤ ص ١٥٤ ط المطبعة المصرية

٥ - بواعث الفاحشة وكيف تقضى عليها ؟؟

نعم هذه بواعث الفتنة :

عري وتهتك وتكسر فى الحديث واختلاط تضيع معه الفوارق وتتلاشي المروءات ويرفع فيه أنصار الشيطان ونظرات مريبة مشبوهة وخلوة بالأجنبية باسم الحضارة والمدنية إلى غير ذلك من هذه الفواحش التي تؤدي إلى خاتمة الفواحش : جريمة الزنا . والتي نظمها شوقى فقال :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

هذه بواعث الفتنة عرفها أتباع الشياطين ودرسوها فى أغوار النفس وأقاموها على نظريات العلم وأصبح لها مدرسة يقودها هؤلاء المغرضون ويضعون لها المناهج ويقررون لها النظريات رغبة منهم فى إطفاء نور الله :

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »[١] .

ويوم تقوم الفتنة وإشاعة الفوضي والفساد على نظريات العلم وقواعده وبحوثه فذلك هو التدمير البشع للانسانيه وما انطلاق الشهوات من عقلها إلا تحطيم للقيم والخلق والدين ونزول بالإنسان إلى مرتبة الحيوان وتلك هى النكبة المؤذنة بفناء البشرية :

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون »[٢] .

---

(١) سورة التوبة ٩ /٣١، ٣٢

(٢) سورة الروم ٤١/٣٠

وهؤلاء الذين ينشرون المجون والاستهتار والفوضى فى النفوس ويسخرون لذلك الصحف والمجلات ووسائل الاعلام المختلفة وتقف وراءهم قوة هائلة من المال والدعاية تصل قوتها أن يصمم مصمم الأزياء فى بلد من بلاد الفسق والفجور زيا من أزياء الخلاعة أو تقليداً من التقاليد فلا تمر عليه ساعات أو أيام معدودات حتى يطبق بحذافيره فى أنحاء الأرض باسم التقدم والحضارة وماشابه ذلك من ألفاظ معسولة تحمل السم المهلك .

ولا سبيل إلى القضاء على بواعث هذه الفتنة إلا أن تحمل الأمة المختارة لحمل رسالة الاسلام راية القرآن تستظل بها وتعتصم بما يحمله هذا القرآن من مبادىء خالدة أخرجت أمة من العدم إلى الوجود وصنعت حدثاً فذاً فى التاريخ انتقل به العرب من رعاة الأغنام إلى رعاة الأمم :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) .

وطريقها فى ذلك أن يصلح كل فرد قلبه ووجدانه ويطهر سريرته وباطنه وأن يداوى بالقرآن داءه كما قال الحق تبارك وتعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » (٢) .

وقال : وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى(٣) .

وقال : وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين(٤) .

طريق أمة الإسلام : الالتزام بما ورد فى كتابها من تحليل وتحريم لا أن تسير وراء كل ناعق ولا أن تتنازل عن دينها مجاراة لمدنية زائفة :

---

(١) سورة آل عمران ٣ / ١١٠ (٢) سورة العنكبوت ٢٩ / ٤٥

(٣) سورة طه ٢٠ / ١٣٢ (٤) سورة الاسراء ١٧ / ٨٢

قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون[١] .

ولم نعد فى حاجة إلى دليل بعد ما طف الصاع وبلغ السيل الزبى ونجح أعداء الله والحاقدون على دينه فى زحزحة هذا الدين عن ركب الحياة واستبدال تعاليمه بتعاليم مصطنعة . وعاداته وتقاليده بعادات وتقاليد بعيدة عن الطريق الذي رسمه كتاب الله .

ولم تعد هناك فرصة بعد أن تكالب علينا العالم كله ليضرب ضربته القاضيه وليفرغ فيها حقداً دفينا على أمة الاسلام . إنهم هؤلاء الأعداء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . وهؤلاء لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة .

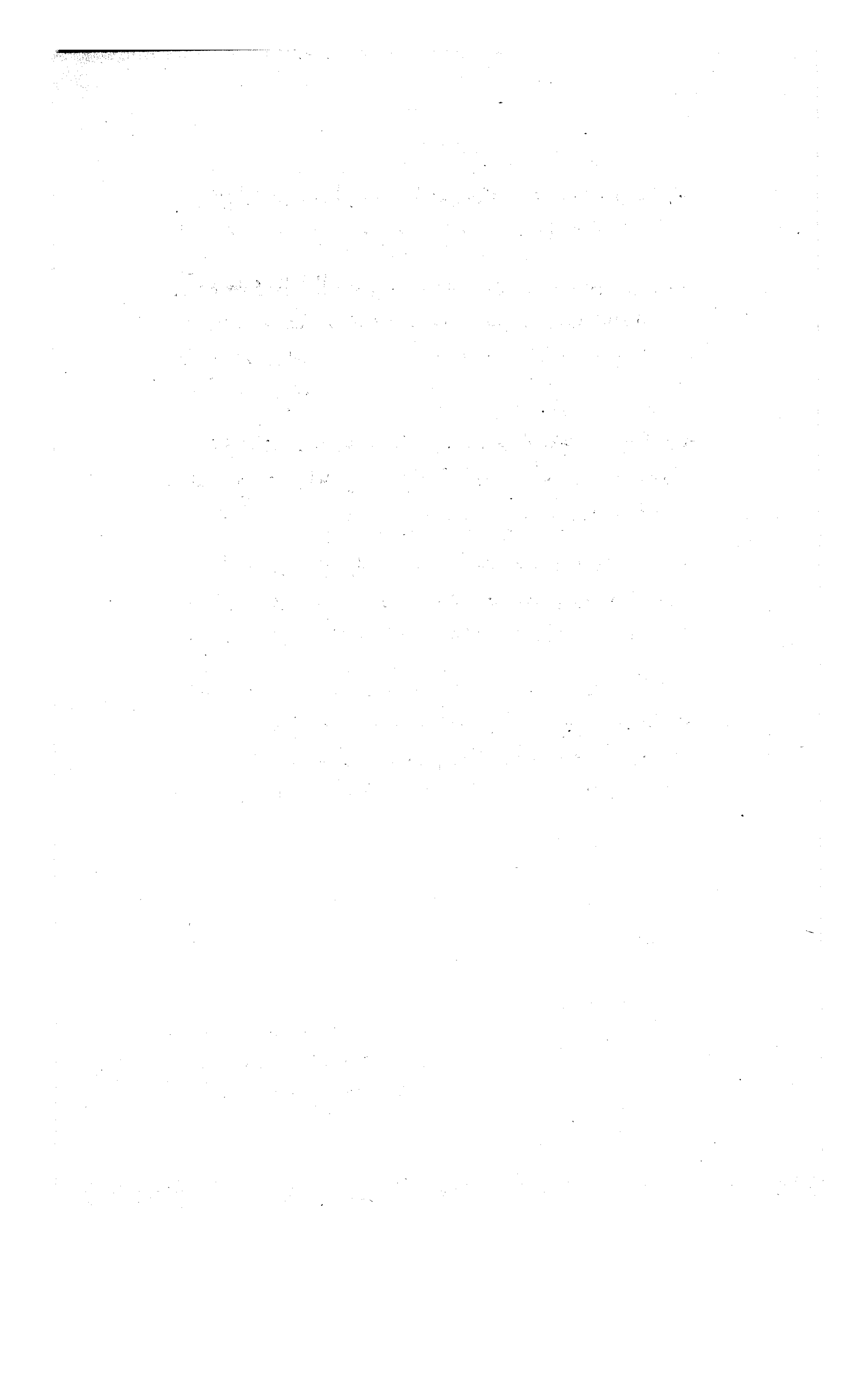
إن القضاء على بواعث الفاحشة حياة للمجتمعات وتخفيف لها من عبء ثقيل والله الرحيم الرحمن أراد لنا الخير والاسعاد ودلنا على طريقه الواضح . ولكن أنصار الشر يشعلون — دائماً — نار الفتنة فمن أطاعهم أحرق بنارهم ومن سار فى ركب النور الإلهى فقد فاز ونجا :

يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً[٢] .

---

(١) سررة الأعراف ٧/٣٣

(٢) سورة النساء ٤/٢٦ — ٢٨ .



الوصية الخامسة :

قوله تعالى :

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق »

---

١ ـــ لماذا أفرد الله هذه الوصية بالذكر مع أنها داخلة فى الفواحش ؟

٢ ـــ الإستثناء فى قوله : « إلا بالحق » وإعرابه .

٣ ـــ جريمة القتل وما فيها من ظلم وإعتداء على الكرامة الإنسانية .

٤ ـــ نظرة الإسلام لهذه الجريمة وكيف يقضى عليها ؟

٥ ـــ من الذى يجب قتله بأمر الإسلام ؟ ولماذا ؟ ؟

٦ ـــ المجتمع المسلم مجتمع مستقر آمن .

٧ ـــ الجهاد الإسلامى هل هو قتل للنفس ؟

١ – لماذا أفرد الله هذه الوصية بالذكر مع أنها داخلة فى الفواحش ؟

الإشراك بالله . وجريمة الزنا وقتل النفس كثيراً ما يأتى النهى عنها متوالية فى القرآن وذلك لأنها كلها جرائم قتل في الحقيقة :

الأولى : قتل للفطرة . والثانية : قتل للجماعة . والثالثة : قتل للنفس المفردة

فالمشرك يقتل فطرته ويقطع الطريق الموصل له إلى الله . يقول القرآن : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعلمون »[1] .

والمجتمع الذي يعيش في وحل الشهوات مجتمع هزيل ضعيف فى طريقه إلى الفناء والهلاك .

والمجتمع الذى تنتشر فيه الفوضي ويقتل أفراده وتعمه الثارات لا يستقر له قرار ولا يصل إلى أمان ... نعم . كل هذه فواحش تهلك المجتمعات . وحين قال القرآن : ولا تقربوا الفواحش » عرفنا ماذا يقصد بهذا النهى وأنه جريمة الزنى ومقدماتها وما تعده لها المجتمعات الفاسدة من ألوان الاثارة والاشباع الجنسي .

أما أن يكون النهى عن الفواحش عاماً يشمل كل فاحشة قلنا أن نتساءل: لماذا أفرد الله جريمة القتل بالذكر مع أنها داخلة فى هذا العموم ؟ ؟

يجيب على هذا التساؤل الفخر الرازى فيقول : « واعلم أن هذا داخل فى جملة الفواحش إلا أنه تعالى أفراده بالذكر لفائدتين : الأولى : أن الأفراد

---

(١) سورة الأنعام ١٢٢/٦

بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم كقوله : وملائكة وجبريل وميكال. والثانية أنه تعالى أراد أن يستثنى منه ولا يتأتى هذا الاستثناء فى جملة الفواحش[١] إلا أن إجابة الفخر الرازى القائل بعموم النهى عن كل الفواحش ما هى إلا خروج من مأزق أو وقعة فيه هذا العموم . . وإلا فلا مناص أن نقول ما سبق : من أن المقام مقام تعداد أمور بعينها والنهى عن الفواحش هنا مقصود به : الزنى ومقدماته كما عرفنا ذلك فى استعمالات القرآن لهذه الكلمة .

٢ — الاستثناء فى قوله « الا بالحق » واعرابه »

أما الاستثناء فى قوله « إلا بالحق . فهو استثناء مفرغ أى لا تقتلوها فى حال من الأحوال إلا حالي ملابستكم بالحق . فهذا الاستثناء راجع لقوله : « لا تقتلوا » لا لقوله : «حرم». والباء للملابسة هى ومدخولها خال من الواو فى « تقتلوا » . والأولى أن قوله « إلا بالحق » مفعول مطلق : أى إلا القتل المتلبس بالحق[٢] .

ويجوز أن يكون هذا استثناء من أعم الأسباب أى لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق . أو من أعم المصادر أى لا تقتلوها قتلا إلا قتلا كائناً بالحق .

٣ — جريمة القتل وما فيها من ظلم واعتداء

على الكرامة الإنسانية

وجريمة القتل جريمة بشعة وصاحبها مقطوع الصلة بالله وبالناس وقاسى القلب بل فاقد الحس والشعور . لا يعرف رحمة ولا عطفاً ولا خلقاً ولا ديناً .

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ج ١٣ ص ٢٣٣

(٢) أبو السعود ج ٢ ص ١٤٩

وهذه الجريمة أعلى مراحل الظلم وأقساها بعد الاشراك بالله فهى اعتداء على كرامة الإنسانية وتقطيع لصلات القربى والمودة وتباغض ودمار .

والمقتول : أليس صاحب ولد ؟ فمن لأولاده يرعى يتمهم ويكفكف دموعهم ؟؟

وزوجة : من لترملها ومسكنتها ؟ وأهله وأحبابه : كيف ينزع هذا الإنسان من بينهم دون إثم ارتكبه أو سيئة قدمها ؟

أليس هناك رباط الأخوة الإسلامية ؟ كيف يقطع ؟

أليس هناك حقوق الجوار ؟ كيف تهدر ؟

أليس هناك عطف القرابة ؟ كيف يخان ؟

أليس هناك رباط الإنسانية الجامع لكل البشر ؟ كيف يستباح ؟

نعم .. القاتل يعتدى على كل هذه الحقوق ويقطع هذه الصلات ويخون تلك المبادىء ويستبيح هذا الحمى لذلك كان القتل مما تأباه الطباع السليمة وتنفر منه القلوب الرحيمة وتهاب الإقدام عليه النفوس المستقيمة .

يأباه المسلم وينفر منه المشرك ويفر منه الكافر مراعاة لحق الانسانية ومعرفة بحقوقها . فالقتل ظلم واعتداء أجمعت على ذلك شرائع الأنبياء وقوانين البشر وتساوى فى هذه الحقيقة عابد رب السماء ومن يعبد الحجر والشجر .

٤ ـ نظرة الاسلام لهذه الجريمة و كيف يقضى عليها ؟

والإسلام — وهو دين الإنسانية الجامع — يقدر كرامة الانسان .. ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا [١] .

---

(١) سورة الأسراء ١٧ / ٧٠

ويسخر له كل ما فى هذا الكون كما تنطق بذلك آيات القرآن التى تعدد نعم الله فى السماء والأرض . قال تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لـكم الشمس والقمر دائبين وسخر لـكم الليل والنهار وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار »(١) .

هذا الإسلام يعرف للحياة حقها ويحفظها من الاعتداء والضياع . بل إن الاعتداء على حياة حيوان وإزهاق روحه ظلماً جريمة تدخل صاحبها النار قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض »(٢) .

وإنقاذ حياة الحيوان سبيل للمغفرة والقبول . روى عن رسول الله ﷺ أن رجلا أصابه ظمأ شديد فنزل بئرا ليرتوى من مائها فلما خرج منها رأى كلباً يلهث يلحس الثرى من العطش فقال : لقد أصاب هذا الكلب من الظمأ مثل الذى أصابني فنزل بئراً وملأ خفه وسقى الكلب فشكر الله له فغفر له (٣) » .

فاذا كانت هذه نظرة الاسلام إلى حياة المخلوقات الدنيا من الهرة والكلب فما بالنا بحياة الانسان ؟ ؟

ماذا يكون ثواب من يحفظ هذه الحياة ؟ وماذا تكون عقوبة المستهتر بها المعتدي عليها ؟ ؟

إن الله يجعل الاعتداء على حياة فرد اعتداء على الانسانية كلها ، كما أن المحافظة على حياة نفس واحدة حياة للناس جميعاً . يقول القرآن : « . إنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً »(٤) .

---

(١) سورة إبراهيم ١٤ / ٣٢ - ٣٤ (٢) رواه البخارى
(٣) رواه مسلم (٤) سورة المائدة ٥ / ٣٢

يقول أبو السعود تفسيراً لقوله : فكأنما قتل الناس جميعاً : « ومناط التشبيه اشتراك الفعلين فى هتك حرمة الدماء والاستعصاء على الله تعالى وتجسير الناس على القتل وفى استتباع القود واستجلاب غضب الله تعـالى وعذابه العظيم »(١) .

بل إن حياة الإنسان لا يعد لها شيء على الإطلاق . فلم تخلق هذه الأرض إلا ليعمرها الانسان . يقول الرسول ﷺ : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم »(٢) .

ويعذب الله أهل السماء والأرض لو اجتمعوا على قتل إنسان : فعن ابن عباس رضي الله عنهما : قتل بالمدينة قتيل على عهد رسول الله ﷺ لم يعلم من قتله . فصعد النبى ﷺ المنبر وقال : « يأيها الناس قتل قتيل وأنا فيكم ولا يعلم من قتله لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرىء لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء »(٣) .

وحق الحياة يتساوى فيه البشر جميعاً مسلمهم وكافرهم لذلك أنذر رسول الله ﷺ من يعتدى على أحد من أهل الكتاب بالعذاب الشديد : فعن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة . وفى رواية أخرى : من قتل قتيلا من أهل الذمة حرم الله عليه الجنة »(٤) .

ويضرب الرسول أروع الأمثلة كى يغرس فى النفوس تقديس حق الحياة فان العرب كانت تقدس الكعبة وتشد الرحال من عهد ابراهيم الخليل : هذه الكعبة المعظمة المكرمة فى الجاهلية والتى زادها الاسلام تعظيما وتكريما . يقف الرسول أمامها يقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك وما أعظمك وأعظم حرمتك والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ماله ودمه(٥) .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٢

(٢) رواه الترمذى والنسائى عن ابن عمرو بن العاص .

(٣) الطبرانى (٤) البخارى (٥) النسائى

وهل رأيت أعظم حرمة من الشهر الحرام والبلد الحرام ؟

إن رسول الله ﷺ يقف فى حجة الوداع يقول : أى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه . فقال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . ثم قال : أى شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . ثم قال : أى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه . قال : أليست البلدة مكة ؟ قلنا : بلى . قال : فان دماءكم وأموالكم — أحبه قال : وأعراضكم — عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا فى بلدكم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . ألا لاترجعوا بعدى كناراً يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا هل بلغت . ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب (١) .

إن هذه الكلمات مازالت ترن فى آذان الزمن تتناقلها الأجيال لتثبت عظمة الإسلام وكيف حقق الأمان والسلام للعالم كله ، والذى جعل من علامات أتباعه والمنتسبين إليه المسالمة لكل من فى الكون : فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم (٢) .

نعم هذه جريمة القتل كما يراها الإسلام .

وهو حين ينهي عنها إنما يضع العلاج الالهى لنفوس يستولي عليها هذا الحمق ويسيطر عليها حب الاعتداء وذلك ربط الإنسان بأخيه الإنسان فى وحدة إنسانية جامعة . « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا »(٣) .

---

(١) ابن ماجه (٢) البخارى .

(٣) سورة النساء ٤/١

ولا يجعل اختلاف الدين سبباً للتناكر والتباغض : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »(١) .

ويربط الفرد بأبويه ويوصي الأبوين بالأولاد ويحفظ كيان الأسرة من الإنهيار ويحمى المجتمع من إثارة الشهوات وإستثارة الغرائز ويفرض حقا لكل قريب أو جار . يقول القرآن :

«واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا »(٢) .

ويجعل الإسلام الرحمة بكل الخلق شعار المسلم فهو فى كل أمر يبدأه ينطق بسم الله الرحمن الرحيم . ويعرف قول رسوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من فى السماء(٣) .

لهذا كله يستولى على حس المؤمن شعوراً بالرحمة والمودة والتعاطف على الجنس البشرى بل وتشمل رحمته الطير والحيوان فكيف بالإنسان ؟ هذا مع تغليظ عقوبة القتل وبيان ما فى هذه الجريمة من خطر فى الدين والدنيا .

وبذلك ينتزع كل عامل للاجرام ويقضى على بواعث هذا الشر المستطير .

٥ – من الذى يجب قتله بأمر الاسلام؟ ولماذا ؟

والقضاء على بواعث هذه الجريمة حياة للمجتمع وهو الحق الذى أقره الله لنشر الأمان والسلام لذلك حرم الله القتل إلا بالحق « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .

---

(١) سورة الممتحنة ٦٠ ٨ (٢) سورة النساء ٣٦/٤

(٣) رواه أحمدوأبو داود والترمذى والحاكم عن عبدالله بن عمرو بن العاص .

فما هي النفس التي تقتل بأمر الإسلام ويجب فيها تنفيذ هذا الحق ؟

لقد بين القرآن وأوضحت السنة الحالات التي ينفذ فيها حكم الإعدام ويستحل بها دم الإنسان :

جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا باحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وروى أبو داود والنسائي عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث خصال : زان محصن يرجم . ورجل قتل متعمداً فيقتل . ورجل يخرج من الإسلام وحارب الله ورسوله يصلب أو ينفى من الأرض [١] .

فالحالة الأولى إذن : الثيب الزاني : وحده الرجم . ولا يثبت حد الزنى إلا بالاقرار أو شهادة أربعة كما هو موضح بكتب الفقه .

والشخص الذى أعفه الله بالحلال وأتاح له فرصة المعاشرة الرحيمة والسكن الهادىء كما قال تعالى : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون [٢] .

مثل هذا الشخص حين يعتدى على الحرمات ويلوث الأنساب ويسرق الأبوة ويعبث بأعراض المجتمع يتنازل عن كرامته ويفقد إنسانيته ويهدد الآمنين لذلك أباح الإسلام دمه رجماً بالحجارة . كما جعل لغير المحصن عقوبة الجلد على ملا من الناس : « الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » [٣] .

---

(١) ابن كثير ص ١٨٩ (٢) سورة الروم ٣٠ ٢١ .

(٣) سورة النور ٢٤/ ٢ .

ومن هذا الباب إتيان الذكور فقد قال لوط لقومه : « أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين »(١) .

فسماها فاحشة ليبين أنها زنا كما قال تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » (٢) .

قال القرطبي : « اختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه فقال مالك : يرجم أحصن أو لم يحصن . كذلك يرجم المفعول به إن كان محتلماً . وروى عنه أيضاً : يرجم إن كان محصناً ويحبس ويؤدب إن كان غير محصن وهو مذهب عطاء والنخعي وابن المسيب وغيرهم . وقال أبو حنيفة : يعزر المحصن وغيره .

وروى عن مالك : وقال الشافعي : يحد حد الزنا قياساً عليه . وقد روى أبو داود وابن ماجة والترمذي والنسائي والدارقطني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به .

وهذا لفظ أبي داود وابن ماجه . وعند الترمذي : أحصن أو لم يحصن . وروى أبو داود والدار قطني عن ابن عباس في البكر يوجد على اللوطية يرجم ! !

وقد روى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أنه حرق رجلا يسمى الفجاءة حتى عمل عمل قوم لوط بالنار وهو رأى على بن أبي طالب فانه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واستشارهم فيه فقال على : إن هـذا الذنب لم تعصى به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما علمتم . أرى أن يحرق بالنار فاجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه . ثم أحرقهم الزبير في زمانه . ثم أحرقهم هشام بن الوليد . ثم أحرقهم خالد القسري بالعراق . وروى أن سبعة

(١) سورة الأعراف ٧ / ٨٠ . (٢) سورة الاسراء ١٧ / ٣٢ .

أخذوا فى زمن ابن الزبير فى لواط فسأل عنهم فوجد أربعة قد أحصنوا فأمر بهم فخرجوا بهم من الحرم فرجموا بالحجارة حتى ماتوا وحد الثلاثة وعنده ابن عباس وابن عمر فلم ينكرا عليه . وإلى هذا ذهب الشافعى . وتعلق الحنفيون بأن قالوا : عقوبة الزنا معلومة فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألا يشاركها فى حدها . وأيضاً فانه وطء فى فرج لا يتعلق به إحلال ولا إحصان ولا وجوب مهر ولا ثبوت نسب فلم يتعلق به حد .

قال ابن العربى : والذى صار إليه مالك أحق فهو أصح سنداً وأقوى معتمداً [١] .

والحالة الثانية : قتل النفس بالنفس .

وهذا جزاء عادل فلا أقل ممن قتل إنساناً أن يقتل به وفى ذلك تطمين لأولياء دم المقتول ومنع للثارات والعداوات حين يعلم أهل القتيل أن دمهم لم يضع هدراً وأن الاسلام سوف يأخذ لهم حقهم . يقول القرآن :

ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً[٢] .

وهذا السلطان هو تضامن المؤمنين وقيام ولى أمرهم بتنفيذ ما كتبه الله وفرضه بشأن هذه العقوبة :

يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى[٣] .

وما قرره القرآن قررته التوراة . يقول الله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها (أى التوراة) أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن

---

(١) تفسير القرطبي ج ص ٢٤٣ ، ٢٤٤

(٢) سورة الإسراء ١٧/٣٣ (٣) سورة البقرة ٢/٧٨

والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون[١] .

الحالة الثالثة : التارك لدينه .

ولا مراء فى أن الردة فتنة فى الدين ومن حق الجماعة التي تفتن فى دينها أن تحافظ على نفسها . فمن أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة وجب قتاله وقتله . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه إلا بحقه وحسابهم على الله[٢] .

وقد قاتل أبو بكر مانعي الزكاة لأنهم لم يؤدوا حق لا إله إلا الله والقرآن يقول : فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم[٣] .

الحالة الرابعة : المفارق للجماعة

والإسلام دين التوحيد والوحدة ومن أجل ذلك يدعو الجماعة المسلمة إلي إتخاذ الوحدة شعار الحياتها حتي أنه ليأمر بطاعة الحاكم الظالم مالم يأمر بمعصية إذا كان الخروج على طاعته يسبب فتنة ويحدث شقاقاً .

ولا بد من الالتزام برأى الجماعة فان خرج أحد عليها قاتلته حتي ترده للحق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما[٤] .

وهو واجب الجماعة المسلمة إذا بغت إحدى فئتين على أخرى بعد أن تم بينهما الصلح يقول القرآن : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحدهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين »[٥] .

---

(١) سورة المائدة ٤٥,٥ (٢) متفق عليه

(٣) سورة التوبة ٥/٩ (٤) أخرجه مسلم (٥) سورة الحجرات ٤٩ ٩

الحالة الخامسة : الإفساد فى الأرض ومحاربة الله ورسوله :

وهذه حالة خطيرة يضع لها الشرع حداً قاسياً يتناسب مع عظم جرمها وما فيها من ترويع للامنين وإخلال بنظام المجتمع وتهديد لأمنه واستقراره يقول القرآن : «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(1) .

يقول أبو السعود : « أن يقتلوا : أي حداً من غير صلب إن أفردوا القتل ولو عفا الأولياء لا يلتفت إلى ذلك لأنه حق الشرع ولا فرق أن يكون القتل بآلة جارحة أولا . « أو يصلبوا » أى مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ بأن يصلبوا أحياء وتبعج بطونهم برمح إلى أن يموتوا » . أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . أى أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن اقتصروا على أخذ المال من مسلم أو ذمى . أما قطع أيديهم فلأخذ المال وأما قطع أرجلهم فلاخافة الطريق بتفويت أمنه أو ينفوا من الأرض إن لم يفعلوا غير الإخافة والسعى للفساد والمراد بالنفى عندنا هنا هو الحبس فانه نفى عن وجه الأرض لدفع شرهم عن أهلها ويعذرون لمباشرتهم مفكراً لإخافة وإزالة الأمن .

٦ - المجتمع المسلم مجتمع مستقر آمن ؟

أرأيت كيف يبتر الإسلام كل عضو فاسد فى مجتمعه حتى لا يسرى فساده إلى البناء الاجتماعى كله ؟؟ وكيف أن الحالات التى يهدر فيها دم امرىء يبدو فيها الحق الصراح . ولو تركت حالة منها لكان قصوراً فى التشريع وعدم إحاطته بحاجات الناس . تعالى الله عن ذلك فهو الحكيم الخبير .

وهل رأيت أعظم من عدالة الإسلام وحمايته لمجتمعه ؟ وصدق الله إذ يقول : ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون(2) .

---

(1) أبو السعود ج ٢ ص ٢٣ (٢) سوره البقرة ٢ / ١٧٩

فالقصاص من الجانى حياة للمجتمع وإنماء له وحفظ لأفراده . لكن من يعرف ذلك ؟ إنهم أصحاب العقول السليمة لا أهل القلوب المريضة الذين يخيل إليهم أن ما عندهم من نظم خير من نظام الله : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » (١) .

انظر إلى مجتمع الإسلام كيف يسوده الاستقرار والأمان لأنه محفوظ بحفظ الله وأفراده تتكافأ دماؤهم ويسعي بذمتهم أدناهم .

وكل فرد في هذا المجتمع يعرف مدى ما فى القتل العمد من غضب الله وشدة عقابه يقول القرآن : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما (٢) .

وقد مر بنا وعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قتل معاهداً أو حيوانا فكيف بمن قتل مؤمناً ؟ ؟

وحين يقرر الاسلام عقوبة الاعدام فى القتل العمد يقرر الدية في القتل الخطأ حتى تهدأ نفوس أولياء الدم . ويقرر مع الدية شيءآخر : تحرير رقبة مؤمنة . وكأن القاتل بتحريره لهذه الرقبة يضيف عنصراً جديداً للنوع الإنسانى بدل ما أضاعه بخطئه . فان لم يستطع فصيام شهرين متتابعين : وهو بصيامه يحيى نفسه الميتة وينتزع منها كل أمراضها ويربيها بتقوى الله وخشيته فالقتل — دائماً — يتنافى مع الايمان يقول الحق تبارك وتعالى : وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلي أهله إلا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما (٣) .

---

(١) سورة النساء ٤ / ٦١

(٢ ، ٣) سورة النساء ٤ / ٩٢ ، ٩١

ويجعل الله الابتعاد عن مثل هذه الجريمة صفة من صفات عباد الله الذين اختارهم واصطفاهم فيقول سبحانه : والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً (١) .

وكيف لا يكون المجتمع الإسلامى مجتمعاً آمناً شعاره السلام والأمان ؟ يبدأ ذلك من اسم الله تعالى فهو سبحانه : السلام المؤمن ، ويسرى ذلك فى كيان المؤمنين فتكون تحية المسلم حين يلقى أخاه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كما يردده فى كل سلام : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ولا يخرج من الصلاة إلا بكلمة السلام ويسمع هذه الكلمة فى الجنة . أدخلوها بسلام آمنين (٢) .

وتحيتهم فيها سلام(٣) .

سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين(٤) .

سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار(٥) .

والجنة اسمها دار السلام : « لهم دار السلام عند ربهم »(٦) .
والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم (٧) .

وهى لغة عباد الله إذا ما خاطبهم الجاهلون : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٨) .

---

(١) سورة الفرقان ٢٥ / ٦٨ (٢) سورة الحجر ١٥ / ٤٦
(٣) سورة يونس ١٠ / ١٠ (٤) سورة الزمر ٣٩ / ٧٣
(٥) سورة الرعد ١٣ / ٢٤ (٦) سورة الانعام ٦ / ١٢٧
(٨) سورة الفرقان ٢٥ / ٦٣ (٨) سورة الفرقان ٢٥ / ٦٣

والأمان جزاء الله للمهتدين : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون[١] .

وهو وعد الله لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جزاء جهادهم : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضي لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً[٢] .

وكيف لا يستقر هذا المجتمع وأفراده متعاونون جميعاً فى القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا يقبلون ظلما يقع على واحد منهم . ويوم تهون المبادىء تهون الأمة كلها . وما هانت أمة الإسلام إلا حين تركت هذه التعاليم السامية والمبادىء الرفيعة العالية . وما عرف المجتمع المسلم الأول غير العزة والكرامة والتناصر والتعاون يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قال : انصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ قال : تحجزه عن ظلمه فذلك نصره[٣] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفع عنه[٤] » .

وجزاء من ينصر المظلوم عظيم عند الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مشى معي مظلوم حتي يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام[٥] .

أرأيت كيف يحيا المجتمع الذى يصنعه الإسلام فى رحمة ومودة وتعاطف ؟ وكيف تلغى فيه فوارق الجنس واللون والأرض والدين فلا تبقى إلا روابط الإنسانية الرحيمة والعطف الرقيق ؟

ولم لا يحيا هذا المجتمع فى أمان والذى صنعه ورتبه ونظم شأنه هو مبدع السموات والأرض وهو بكل شيء عليم ؟

---

(١) سورة الأنعام ٦/ ٨٣ (٢) سورة النور ٢٤/ ٥٥
(٣) البخارى (٤) الطبرانى (٥) الأصبهانى

٧ - الجهاد الاسلامى : هل هو قتل للنفس

هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا للدنيا يحملون سيوفهم ومعها أرواحهم ودماؤهم يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون .

لم خرج هؤلاء ؟ وكيف قتلوا هذه الأعداد الضخمة من البشر ؟ لنا أن نتساءل : هل جهادنا الإسلامى قتل للنفس أم حياة للنفوس ؟

هل هو ترويع وتخويف للامنين ونقص فى النـــوع الإنسانى أم تثبيت وتطمين وتأمين وزيادة فى النوع الإنسانى ؟

إن الله حين أرسل رسوله محمد صـــلى الله عليه وسلم . جعله رحمة للعالمين : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(١) .

ولكن هذه الرحمة قوبلت بالانكار من أهل مكة فنزل برسول الله وأصحابه على مدى ثلاثة عشر عاما من ألوان الاضطهاد والتعذيب مالا يتحمله بشر . إلي أن كانت مؤامرة دار الندوة وأذن الله رسوله بالهجرة إلى المدينة فترك هو وأصحابه ديارهم وأموالهم وخرجوا مهاجرين إلى أرض يثرب حيث أنصار الله وأنصار رسوله . وكان لا بد للمظلوم أن ينتصر فنزل قول الله تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله(٢) .

ثم فرض عليهم القتال لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين(٣) .

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة حين تجمعت الجزيرة العربية كلها على

---

(١) سورة الأنبياء ٢١ ١٠٧ (٢) سورة الحج ٢٢/ ٣٩، ٤٠

(٣) سورة البقرة ٢/ ١٩

حرب المسلمين فقال لهم ربهم . وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة.(١).

وقال لهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون(٢) .

فكان القتال محرماً ثم مأذونا فيه ثم مأموراً به لمن قاتلهم ثم مأموراً به لجميع المشركين. وبالمرحلة الأخيرة انتقل الاسلام ليأخذ دوره القيادي فى حياة البشرية باعتبار أنه دين عالمى ورسوله رحمة للعالمين . والمرحلة الأخيرة كما يقول ابن القيم فى زاد المعاد هى التي استقر فيها أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له وأهل عهد وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ومسالم له آمن وخائف محارب(٣) .

وليس جهادنا الاسلامى مجرد دفاع عن الارض كما يفهم البعض من كلمة الدفاع إنما هو تحرير للانسان فى كل أرض وكل زمان

وإذا كان لا بد له أن يدافع فهل يتركه أهل الضلال يصل إلى القلوب والعقول ؟

إن التجربة أثبتت أنه لا تعايش على الاطلاق بين الاسلام والحاقدين من أهل الشرك والظلم مصدقاً لقوله الله تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً(٤) .

إن تأمين دار الاسلام شيء لأبد منه لانها مركز الانطلاق للعالم كله . .

---

(١) سورة التوبة ٩ ٣٦

(٢) سورة التوبة ٩/٢٩

(٣) زاد المعاد : لابن القيم ج٢ ص ٨١

(٤) سورة الحج ٢٢, ٤٠

لكن هل كان أبو بكر وعمر والخلفاء من بعدهم سيقفون مكتوفى الأيدى حين وقف المشركون على حدود بلاد الاسلام خائفين لا يهاجمون المسلمين فى عقر دارهم ؟ .

وهل سأل واحد من المجاهدين نفسه : لم خرجنا للجهاد ؟ فقال : خرجنا ندافع عن وطننا المهدد أو نصد عدواناً من الفرس أو الروم من حولنا . . أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنائم ؟

لا . . إنهم خرجوا يحطمون معاقل الظلم والطاغوت فى الأرض كلها حتى يحرروا الشعوب من ذل العبودية للبشر ويبلغون دعوة الله إلى الناس دون عوائق وحواجز . وبذلك سار المسلمون حاملين راية التوحيد والعدالة شرقاً وغرباً من بلاد الصين إلى بلاد الاندلس ومن أقصي الشمال إلي جنوب أفريقيا وهم يقولون ما قاله ربعى بن عامر وحذيفة بن محصن والمغيرة ابن شعبة لرستم قائد جيش الفرس فى القارسية حين سألهم واحداً بعد واحد فى ثلاثة أيام متوالية قبل المعركة : ما الذى جاء بكم ؟ فيكون الجواب : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلي عدالة الإسلام فأرسل رسوله بدينه إلي خلقه فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر (١) .

عبادة العباد وضيق الدنيا وجور الأديان المحرفة موت للشعوب . ولا خير يرجي من أناس هذا حالهم . وإذا كان لابد من بعث للنوع الإنسانى وتحرير له من كل هذا الضلال فلا بد من خوض المعارك وحمل السلاح فى وجه كل من وقف فى طريق هذا الزحف المبارك حتي يصل إلى غايته فى إنقاذ البشرية من موتها وضيقها وجهلها إلى حيث الحياة والرحمات .

---

(١) تاريخ الفتح الاسلامى فى عهـــد الرسول عليه السلام وعصر الخلفاء الراشدين و بنى أمية للاستاذ محمد فخر الدين ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

من أجل هذا كان الجهاد الإسلامى الذى انطلق حملة رايته يحملون معهم الرحمة المهداة والنعمة المسداة التى اكتملت فى شخص رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وفى رسالته السمحة الرحيمة فكان حمل السيف دفاعا عنها وانطلاقا بها وإبلاغا لها إلى العالم كله تحقيقاً للهدف من هذه الرسالة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .



الوصية السادسة :

قوله تعالى :

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده

---

١ — اليتيم إنسان محتاج إلى رعاية .

٢ — اليتيم فى المجتمعات الجاهلية .. وكيف ضاع حقه .

٣ — عناية القرآن باليتيم .

(ا) توريثه .

(ب) إقامة وصى عليه وواجبات هذا الوصى .

(حـ) اليتيمة الغنية والفقيرة وذات الجمال والخالية من الجمال وحكم تزوج الوصي بها .

٤ — متي يدفع لليتيم ماله ؟ :

(ا) ما هو الابتلاء المأمور به ؟ وإلى متي ؟

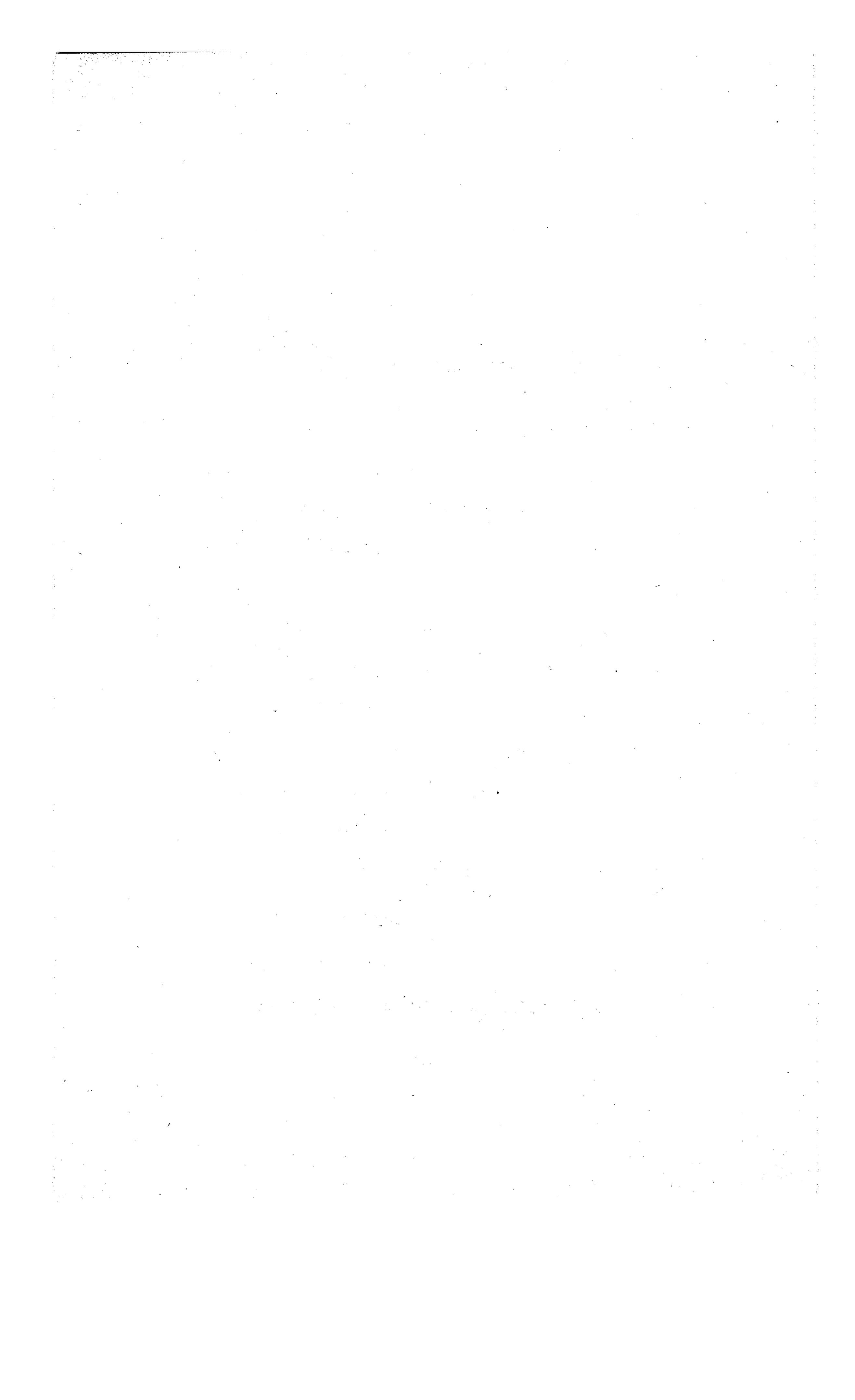
(ب) ما معنى : حتي يبلغ أشده ؟

(حـ) لماذا طالب بالإشهاد على دفع مال اليتيم ؟

٥ — جزاء من يعتدى على مال اليتيم .

٦ — ما حكم مخالطة الأوصياء لليتامى ؟

٧ — اليتيم الفقير ورعاية القرآن له ومحافظته على إنسانيته وكرامته .



١ - اليتيم إنسان محتاج إلى رعاية

يولد الانسان لا يعرف شيئاً فهو عاجز ضعيف - فيجد أيد رحيمة تحمله وقلوباً حانية ترحمه وأماً تحوطه بالعناية والرعاية . تفضل حياته على حياتها وتجد فى السهر والألم والمشقات لذة وسعادة كما يجد أباً يسعي يومه كله ويبذل من جهده وعرقه ما يوفر له ملبساً نظيفاً وطعاماً شهياً ومسكناً جميلا وتسلية تذهب الهم . كما يرى الإنسان عيوناً ترقبه في غدوه ورواحه تحرسه وتحافظ عليه وتوفر له الأمان والإسعاد وهو فى مرحلة لا يعرف معنى ألم الجوع أو العرى ولا يحس خوفاً من مستقبل أو عدو : فقد كفل له أبواه كل هذا بدافع فطرى غريزى فى الأبوة والأمومة .

لكن هناك من يفتح عينيه على الدنيا فلا يجد شيئاً من هذا . فقدمات أحد أبويه أو كلاهما وهم « اليتامى » بل هناك من لم يهتدوا حتى إلى أسماء آبائهم أو أمهاتهم وهم : اللقطاء . فيدب هذا اليتيم وذلك اللقيط على الأرض — وفى أول عهده بالحياة — كسير الجناح : لا ظهر يحميه ولا سند يدفع عنه فقدمات حاميه وسنده . وهو فى فترة يتمه أحوج المخلوقات للعناية والرعاية . . فهو كالنبتة الصغيرة تميلها الريح كيف شاءت إن لم يكن لها ما يتعهدها بالسقى والمحافظة سرعان ما تزبل وتفقد الحياة . ومن واجب الانسانية أن تحفظ على هذه النبتة الضعيفة حياتها وأن تمدها بما تحتاج إليه وأن تحوط هذا اليتيم بألوان من العطف والمودة حتى تعوضه مافقده من أب رحيم وأم رءوم ، وإلا أضاعت جزءاً من كيانها وفقدت جانباً مهماً فى نظامها وأدى إهمالها لهذا البائس إلى أنواع من الشقاء والضياع فيوجد بين أبنائها إنسان محروم من الرحمة وهى بذلك تخلق مجرماً قاسياً يهدد أمنها وينتقص من كرامتها .

واليتيم إذا ما أحيط بعناية المجتمع وأتيحت له الفرص ربما أصبح من عظماء الرجال وقادتهم .

وهذا هو خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله كان يتيما فقيراً فآواه الله وأغناه وجعل منه أعظم إنسان فى الوجود : « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى » (١).

إلا أنه ليس كل كمحمد صلى الله عليه وسلم .. فالله قد جعله يتيما حتى لاتكون ليد بشر أثر فى تربيته فشأن رسل الله ما قال الله لموسي : « ولتصنع على عينى » (٢).

وكما قال لمحمد عليه السلام : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » (٣).

لهذا كان لابد للمجتمع من القيام بواجب اليتيم وإحساس كل رجل فيه أنه أب لكل محروم من الأبوة .. وشعور كل أم أنها أم لكل محروم من عطف الأمومة وإلا فهو الضياع والهلاك لهـــذا المخلوق الضعيف والتفكك والانهيار لهذا المجتمع الذى فقد الانسانية والرحمة .

٢ ـ اليتيم فى المجتمعات الجاهلية . . وكيف ضاع حقه !

لقد كانت المجتمعات الجاهلية قبل الاسلام تنظر إلى اليتيم أنه لاسنديحميه ولا أحد يمنع عنه الظلم وأنه ليس أهلا لأن يرث مال أبويه إن كان لهما مال وشعارهم فى ذلك . أن الأيتام لايحملون سيفاً ولا يركبون فرساً ولا ينكون « يرمون » عدواً ويكسبون عليهم ولا يكتسبون .

وكانت الفتاة اليتيمة أسوأ حالا وأحط شأناً فى مجتمع لايرحم أبداً : فاذا كانت ذات مال وجمال ضمها وليها طمعاً فى مالها وجمالها ولم يقسط فى صداقها وإذا كانت فقيرة قليلة المال رغب عن نكاحها فعاشت مظلومة مهانة ضائعة .

---

(١) سورة الضحى ٩٣ ٦ — ٨

(٢) سورة طه ٢٠ / ٣٩ (٣) سورة الطور ٥٢ / ٤٨

« روى عن عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة رضى الله عنها عن قول الله تعالى : وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى . . فقالت : يا بن أختي هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق . فأمروا أن ينكحوا ماطاب لهم من النساء سواهن .

وقالت عائشة فى قول الله تعالى : وترغبون أن تنكحوهن : رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال . قالت : فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذ كن قليلات المال والجمال . »(١)

٣ ـ عناية القرآن باليتيم

أرأيت كيف ضاع حق اليتيم فى المجتمع الجاهلي الذى لم يستنر بنور الوحى فلم يعرف أين الطريق في حين أن اليتيم محتاج إلى العون ومد يد المساعدة ؟

وكان لا بد للثورة التى أعلنها الاسلام على كل ألوان الظلم أن ترفع عن الأيتام واللقطاء وأهل الفاقة والمسكنة ماهم فيه من ضيق وكرب وما يشعرون به من ظلم مجتمعاتهم .

وكان لابد لهذه الثورة أن تعيدلهم إنسانيتهم وكرامتهم وتشعرهم بأنهم جزء من مجتمع لا يعطيهم تفضيلا وإنما يبذل لهم ما يبذل فرضاً وواجباً كما قال المولى سبحانه : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم(٢) .

وثورة الاسلام ثورة ربانية : حين تقرر أمراً من الأمور تربطه بمصدر

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير باب . سورة النساء .
(٢) سورة الذاريات ١٩/٥١

الخير الأزلي وهو الله تعالى فهى حين تأمر بالاعطاء والانفاق تسكب السكينة والسعادة فى قلب المعطى والآخذ . فالأول له أجر كبير رغم أنه لا ينفق من ماله كما قال له ربه : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير[1] .

والثانى : يحس بأنه يعيش فى مجتمع متراحم متكافل وأن عليه واجبات يؤديها لله وللمجتمع الذى حفظ ضياعه ورد له اعتباره وأبقى عليه حياته فتكون الوحدة الاجتماعية بل والوحدة الانسانية بين البشر ولقد رأيت خلال آيات الله فى كتابه كيف اعتنى القرآن باليتيم فى ثلاثة وعشرين موضعاً حتى قرر له حقه كاملا ورفع عنه كل ظلم وجعل له آلاف الآباء والأمهات بدل أبويه . . بل كان أرحم به من والده وأمه :

(ا) توريث اليتيم :

وتبدو مظاهر هذه العناية وتلك الرحمة بتوريث اليتيم بعد أن كانت المجتمعات الجاهلية لا تورثه . قال تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » [2] .

بل أصبح لليتيمة حق فى الميراث بناء على هذا الحكم : فالولد يشمل الذكر والأنثى لذلك فضله بقوله : « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

وإنها لبداية طيبة يبدأ بها الأيتام حياتهم وتغنيهم عن ذل المسألة وترد عنهم شره الطامعين وتشعرهم بعزتهم وكرامتهم .

(ب) إقامة وصي عليه .. وواجبات هذا الوصي :

ولما كان هذا الطفل الصغير لا يستطيع القيام بشئون نفسه فضلا عن أن يصرف ماورثه عن أبيه أو أمه .. نصب الإسلام عليه وصياً ليتعهده ويتعهد

---

(١) سورة الحديد ٥٧ / ٧ (٢) سورة النساء ٤ / ١١

ماله بالتثمير والحفظ إلى أن يصل إلى مرحلة الفهم والادراك وحسن التصرف فيسلمه هذا الوصي ماله .

ولا تكون الوصية لأي إنسان إنما يشترط الاسلام شروطاً كلها لصالح اليتيم :

فيشترط فى الوصى : أن يكون رشيداً معروفاً بحسن التصرف وسلامة التقدير ومشهوراً بالعدالة . أميناً . صالحاً فى دينه . حسن الأخلاق فى معاملته للناس .

ومع هذه الشروط يتعهد الله الوصي بالنهى بعد النهى ليوقظ — دائماً — حسه وقلبه حتي لايحيف ولا يميل . فالمال كالشهوات ينهي الله عن اقترابهما خشية الوقوع فى آثامهما وخطرها . فيقول سبحانه : « ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » .

يقول أبو السعود : « توجيه النهى إلى قربانها لما مر من المبالغة فى النهى عن أكله ولإخراج القربان النافع عن حكم النهى بطريق الاستثناء أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلا بالتي هى أحسن »[1] .

إنه يقول للأوصياء: «وآتوا اليتامي أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً »[2].

فى هذه الآيه يوجه الله الأوصياء إلى ضرورة الإنفاق على اليتامى من أموالهم نفقة معتدلة تشمل كل مايحتاج إليه من مأكل وملبس ومسكن وتعليم وعلاج . كما يوجههم إلى ناحية مهمة فى حياتهم كان يبدو فيها ظلم اليتيم واضحاً : وذلك أنهم كانوا يستبدلون الخبيث بالطيب وقد كانت ثروتهم حيوانية ويقولون : رأساً برأس . . وشاة الوصي هزيلة وشاة اليتيم ثمينة قوية

---

(١) أبو السعود جـ ٢ ص ١٤٩ .

(٢) سورة النساء ٤ / ٢

فأين هذا من ذاك ؟ وقد تكون أموال اليتيم أرضاً زراعية جيدة أو عمارة حديثة جيدة الطراز أو حيوانات من نوع ممتاز فيقطع الوصي في استبدالها.

وأخطر من عملية الاستبدال أكل أموال اليتيم دون عوض أو مقابل .

إنها لصورة محزنة أن يقوم الوصي بضم مال اليتيم إلى ماله حتى إذا بلغ اليتيم سن الرشد وطلب شيئاً من هذا المال لم يجد شيئاً بحجة أنه أنفقه عليه أو اجتاحته جائحة أو يختلق ماشاء من الحجج والأكاذيب .

ويزيد هذا الأمر جرماً وشناعة أن يكون الوصي صاحب مال فلا يكتفي بماله بل يسلب هذا الطفل العاجز ماله ويضمه إليه . وهذا ماتفيده كلمة « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم .

وويل لمن فعل هذا . وويل لمجتمع يرضي بهذا . وصدق الله إذ حكم على هذا الفعل فقال : « انه كان حوبا كبيراً » .

إن واجب الوصي تحدده هذه العبارة : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

يقول القرطبي : « أي بما فيه صلاحه وتثميره وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه .[1]

فلا يكفي الإحسان فقط وإنما لا بد من اختيار أحسن الوسائل التي تحفظ هذا المال وتنميه . وبذلك يكون بمنزلة الأب يشعر اليتيم بعطفه وحرصه على ما ينفعه ويربيه كأحسن ما تكون التربية فقد أصبح هذا الإنسان أمانة يؤديها إلى أهلها : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها[2] .

« فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه[3] .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٧ ص ١٣٤

(٢) سورة النساء ٤ ٥٨ (٣) سورة البقرة ٢/٢٨٣

(ج) اليتيمة الغنية واليتيمة الفقيرة . وذات الجمال والخالية من الجمال وحكم تزوج الوصي بها :

هناك مظهر من مظاهر الجور يقضي عليه الإسلام وذلك فى حالة اليتيمة الغنية والفقيرة وذات الجمال والمحرومة منه :

فالحالة الأولى — كما سبق — كان الولى يتزوجها فلا يقسط فى صداقها ويستولى على مالها فيكون دافع الزواج ماديا لا إنسانيا تقام عليه أسرة يسودها الرحمة والتعاطف .

وفي الحالة الثانية : إذا ما كانت فقيرة وليست ذات جمال رغب عنها وتركها وأهملها فجمعت بين اليتم والفقر والإهمال وظلم الولي فعاشت مهيضة الجناح كسيرة القلب .

فكيف عالج القرآن هذه الظاهرة ؟

تحدد ذلك آيتان من سورة النساء :

أولاهما : الآية الثالثة فى السورة : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامي فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » .

وثانيهما الآية ١٢٧ في السورة : « ويستفتونك فى النساء قل: الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامي النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط .

والآية الأولى تعالج الظاهرة الأولى فانها نهي للأولياء أن يتزوجوا اليتيمات إذا خاف الولى ألا يقسط فيها وأن يبخسها صداقها ويستولى على مالها وله فى الزواج من غيرها متسعا من واحدة إلى أربع إذا ما تأكد من العدل بينهن وإلا وجب الاقتصار على واحدة .

وإذا ما كان القصد من زواج الولى باليتيمة هو التمتع بها وإسعادها ودفع المهر المناسب لها ولم يكن الغرض منه أكل مالها بالباطل تحت ستار الزواج وكان الوصي أهلا للعدل فى المعاملة : يرد إليها مالها حين يؤنس منها الرشد بعد البلوغ فان حكمها حينئذحكم الزواج من غيرها : لها مهر المثل ولها على زوجها ما لكل زوجة على زوجها من حقوق يقول صاحب كتاب الانتصاف :«الآية بيان حكم اليتامى وتحذير من التورط فى الجور عليهن وأمر بالاحتياط وفى غيرهن متسع إلى الأربع[١] .

هذا حكم اليتيمه الجميلة صاحبة المال فاذا كانت قبيحة المنظر فقيرة الحال فماذا يكون حكمها ؟ ؟

الآية الأخرى فى الصورة تبين الواقع منهم فعلا : وهو أن الواحد منهم إذا كانت عنده يتيمة غنية حبسها حتي الموت دون أن يتزوجها فيرثها . وإن كانت فقيرة أضحت لا مكانة لها عنده على الإطلاق يسومها ألوانا من الضيق والكرب والمذلة .

وواجب الأمة إزاء هذه الحالة أن تمنعها وأن تقف فى وجه هذا الظلم كما يفهم من قوله تعالى : « وأن تقوموا .

يقول الزمخشري : « وأن تقوموا » خطاب للأمة فى أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم ولا يخلوا أحداً يهتضمهم[٢] .

وكان عمر — إنطلاقا من فهم الإسلام وتطبيقا لعدالته — إذا جاءه ولى اليتيمة نظر فان كانت جميلة غنيه قال زوجها غيرك والتمس لها من هو خير منك وإن كانت دميمة ولا مال لها قال : تزوجها فأنت أحق بها[٣] .

---

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال — لأحمد بن محمد الاسكندرى المالكى وهو هامش من كتاب الكشاف للزمخشري ج١ ص٣٧٥

(٢ ، ٣) الزمخشري ج ١ ص ٤٢٧ .

٤ - متى يدفع لليتيم ماله ؟

ومهمة الوصي — إذن — أن يحفظ أصول مال اليتيم ويثمر فروعه فاذا ما وصل إلى سن معينة وجب دفع ماله إليه بعد أن يكون أهلا للتصرف فى ملكه ولابد من الإشهاد على إعطائه هذا المال — وهنا نتساءل : ما هو الابتلاء المأمور ؟ وكيف يكون ؟ وإلى متي ؟ وهل يمنح الوصي أجراً على وصايته ؟ وكيف يقدر هذا الأجر ؟ وما فائدة الإشهاد علي دفع مال اليتيم ؟

تقول الآية : « وابتلوا اليتامى حتي إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا . ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا » [١] .

(ا) ما هو الإبتلاء المأمور به ؟ وإلى متي ؟

والابتلاء فى اللغة : الاختبار والامتحان . ويوضحه المفسرون فيقول أبو السعود : « تتبعوا أحوالهم فى صلاح الدين والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بما يليق بحالهم فان كانوا من أهل التجارة فبأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعاً وابتياعا . وإن كانوا ممن لهم ضياع وأهل وخدم فبأن تعطوهم منه مايصرفونه فى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم وسائر مصارفهم حتى تتبين لهم كيفية أحوالهم » [٢] .

وهذا الاختبار ما هو إلا إعداد لليتيم ليتحمل بنفسه أعباء الحياة قبل أن يبلغ الحلم وذلك بالتدرج معهم فى تكليفهم ببعض الأعمال حتى يأنس المولى من اليتيم رشدا .

---

(١) سورة النساء ٤ / ٦

(٢) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٣١٧

وفى تنكير كلمة « الرشد » إشارة إلى الاكتفاء بنوع معين لا يصل إلى مرحلة الكمال . . والابتلاء مرحلة سابقة على بلوغ النكاح كما يفهم من قوله تعالى : « وابتلوا اليتامي حتي إذا بلغوا النكاح » .

معنى هذا أن الإسلام لا يهتم فى الوصايا على اليتيم فى حفظ ماله أو تثميره فحسب ولكنه يهتم قبل هذا بتربية اليتيم واعداده للحياة إعدادا سليما . وبعبارة أوضح : إن اليتيم فى تقدير الإسلام أهم من ماله مهما بلغ . وعلى الولى أن يقوم مقام الأب . وليس هناك أب لا يحرص على تنشئة إبنه بحجة أنه يجمع له الأموال . فلا فائدة في مال لا يحفظه ابن صالح لوراثته .

« وقد اختلف في الإبتلاء والرشد . فالابتلاء عند أبى حنيفة وأصحابه : أن يدفع إليه ما يتصرف فيه حتي يستبين حاله فيما يجيء منه . والرشد : التهدي إلي وجوه التصرف . وعن ابن عباس : الصلاح فى العقل والحفظ للمال . وعند مالك والشافعى . الابتلاء . أن تتبع أحواله وتصرفه فى الأخذ والإعطاء وتبصر مخايله وسيلة إلى الدين . والرشد . الصلاح فى الدين لأن الفسق مفسدة للمال . هذا إذا أنس منه الرشد عند حد البلوغ فان لم يأنس منه الرشد فقد قال أبو حنيفة . ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة فاذا زاد عليها سبع سنين — وهى مدة معتبرة في تفسير أحوال الإنسان كما فى قوله عليه السلام . « مروهم بالصلاة لسبع » دفع إليه ماله أنس منه الرشد أو لم يأنس . وعند أصحابه . « لا يدفع إليه أبدا إلا بايناس الرشد » [1] .

على أن هناك أمرين يسبقان دفع مال اليتيم إليه . الأول توضحه هـذه العبارة من الآية . « ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا » . فهى نهى للأوصياء عن أن يأكلوا أموال اليتامى مهما كانت دوافع هـذا الأكل فقد يكون الدافع هو الإسراف فى الإنفاق على اليتيم قبل أن يبلغ الحلم ويرشد فيجب

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٧٨ ، ٣٧٩

دفعها إليه فهم يحسون نحو أموال اليتامى غير ما يحسون نحو أموالهم . فأموال اليتامى ينفقون منها باسراف ودون مبالاة أما أموالهم فلاينفقون منها إلا بقدر وإذن فلا بد من الحرص والمحافظة على مال اليتيم حتى يسلمه إليه كاملا .
وثانى الأمرين :

هل للوصي أجر على وصايته ؟

يقول القرآن : « ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » .

فالغنى لايأخذ أجراً علىوصايته مادام ذا مال يستطيع أن يعيش بالانفاق منه ، وقد أوجب الله استعفافالأغنياء بصيغة الأمر التى تغير التوكيد وباختيار « يستعفف » على يعف .

أما الفقير — وهو المحتاج — فله أن يأكل منمالاليتيم بالمعروف بشرط أن تستغرق أعمال الوصايا كل وقته وأن تعطله عن عمله الذى هومصدر رزقه قال أبو السعود : « عن النبي ﷺ أن رجلا قال له : إن فى حجرى يتيما أفأكل من ماله ؟ قال : بالمعروف غير متأثل مالا ولا واق مالك بماله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما . أن ولى يتيم قال له : أفأشرب من لبن إبله ؟ قال : إن كنت تبغي ضالتها وتلوط حوضها وتهنأ جرباها .. وتسقيها يوم ورودها فاشرب غير مضر بنسل ولا ناهك فى الحلب .

« وعن محمد بن كعب : يتقرم كما تتقرم البهيمة وينزل نفسه منزلة الأخير فيما لابد منه » .

« وعن الشعبي : يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه . وعنه : كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضى » .

وعن مجاهد : يستسلف فاذا أيسر أدى . وعن سعيد بن جبير : إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس مايستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فان أيسر قضاه وإن أعسر فهو فى حل .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنني أنزلت نفسي من مال الله تعالى منزلة ولى اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وإذا أيسرت قضيت [١] .

(ب) ما معنى : حتى يبلغ أشده ؟

ومن حقنا أن نعرف الغاية من قوله تعالى : حتى يبلغ أشده : ما معنى كلمة الأشد ؟ وهل يجوز لأى إنسان أن يقرب مال اليتيم إذا ما بلغ أشده ؟

أما الأشد فقد قال صاحب القاموس المحيط : حتى يبلغ أشده : أى قوته وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، واحد جاء على بناء الجمع كآنك ولا نظير لهما . أو جمع لا واحد له من لفظه أو واحدة شدة — بالكسر — مع أن فعله لا تجمع على أفعل . أو شد ككلب وأكلب أو شد كذئب وأذؤب وماهما بسموعين بل قياس [٢] .

قال الليثى : الأشد مبلغ الرجل الحكمة والمعرفة .. قال الفراء : الأشد : وأحدها . شد في القياس ولم أسمع لها بواحد . وقال أبو الهيثم . واحدة أشد . شدة كما أن واحدة الأنعم نعمة ، والشدة . القوة والحلاوة والشديد . الرجل القوى [٣] .

وقال القرطبي: أشده :معنى قوته فقد تكون فى البدن وقد تكون فى المعرفة بالتجربة ولا بد من حصول الوجهين فان الأشد وقعت هنا مطلقة ــ فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة و بعد حصول القوة لأذهبه فى شهواته وبقى صعلوكا لا مال له . »[٤]

---

(١) أبو السعود ج ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .
(٢) القاموس المحيط ج١ ص ٣٠٥
(٣) مفاتيح الغيب ج ١٣ ص ٢٣٤ .
(٤) القرطبي ج ٧ ص ١٣٥

والغاية فى هذا النهى قد أوضحناها فيما سبق وعرفنا السن التي يدفع إلى اليتيم فيها ماله واختلاف الفقهاء فى ذلك . . وفى الكلام محذوف دلت عليه الآية الأخرى قال الطبري : « وفى الكلام محذوف ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ظهر عما حذف وذلك أن معنى الكلام : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده وإذا بلغ أشده فأنست منه رشداً فادفعوا إليه ماله لأنه جل ثناؤه لم ينه أن يقرب مال اليتيم فى حال يتيمه إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده ليحل لوليه بعد بلوغ أشده أن يقربه بالتي هى أسوأ ولكن نهاهم أن يقربوه حياطة منه له وحفظا عليه ليسلموه إليه إذا بلغ أشده (١) .

ومن هذا يتبين أن اليتيم لا يجوز أن يقرب ماله على أى حال بلغ أشده أم لا ولكن الله نبه على معاملته بالتي هى أحسن إلى أن يبلغ أشده حفظا له من الضياع والاعتداء . أما غيره فيستطيع الدفاع عن نفسه بما وهبه الله من قوة . يقول القرطبي : « وليس بلوغ الأشد مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة . وخص اليتيم بالذكر لأن خصمه الله والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده »(٢) .

(ج) لماذا طالب بالإشهاد على دفع مال اليتيم ؟

بقى أمر هام فرضه الإسلام ـ رعاية لليتيم — وهو الإشهاد على دفع ماله إليه . قال تعالى : فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم . وكفى بالله حسيبا .

فلماذا طالب بالإشهاد ؟ ولمصلحة من ؟

أن النظرة الأولى تظهر أن هذا الإشهاد لتأكيد براءة الأوصياء من تهمة أكل أموال اليتامى ظلماً .. والواقع أن الإشهاد فى مصلحة اليتيم أكثر وأظهر .

وذلك أن الإشهاد يقتضي المحاسبة للأولياء على تصرفاتهم فى أموال اليتامى

---

(١) تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٢٢٤

(٢) القرطبي ج ٧ ص ١٣٥

منذ أن تولوا الوصاية عليهم وهذه المحاسبة تقتضى من الشهود المراجعة والتدقيق قبل أن يشهدوا . وفى هذا ضمان لحق اليتيم لأنه لن يترك للواصي يحاسبه كما يشأ ويبعثر بماله كما يمليه هواه .

على أن للاشهاد فائدة أخرى أيضاً هى أن دعوى الأوصياء أنهم ردوا إلى اليتامى أموالهم لن تسمع ولن تقبل إلا أن يكون هناك من الشهود العدل من يشهد على صحتها وإلى فهى مرفوضة وعليهم أن يدفعوا لليتامى أموالهم وإلا اعتبروا آكلين لها بغير حق .

٥ — جزاء من يعتدى على مال اليتيم :

هذا هو الواصي وما يجب عليه إزاء اليتيم . فما جزاء المقصرين والآكلين لمـال اليتيم ؟

إن القرآن ـ فى منهجه التربوى — لا يكتفى بمجرد الأوامر والنواهى ولا يراقب ظواهر الناس فحسب إنما يوقظ حس المؤمن ويغرس فيه شجرة المراقبة لربه فى كل لحظة من حياته .

فهو بعد أن يأمر الأوصياء بابتلاء اليتامى ثم دفـع أموالهم إليهم والاستعفاف فى حال الغنى والأكل بالمعروف فى حال الاحتياج . والاشهاد على إعطائهم حقهم . يختم ذلك بقوله : وكفى بالله حسيبا . ليعرف كل وصي أنه مهمازور على من يشهد ومهما أقنع الناس بأكله بالمعروف فلن يستطيع أن يغالط من يعلم السر وأخفى ومن هو أقرب إليه من حبل الوريد .

ويصور مال اليتيم بصورة يهابها كل من يعرف أنه محاسب أمام الله وذلك إذ يقول : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا »[1] .

---

(١) سورة النساء ٤/١٠ ٩٢

يقول أبو السعود : « أى سيدخلون ناراً هائلة مبهمة الوصف . روى أن آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأذنيه وعينيه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا[١] فكيف يرضى عاقل لنفسه أن يأكل مالا ظلما فيكون ناراً يأكلها فى بطنه فوق ما يراه ومايزل به من عذاب السعير ؟ ولا يدعهم القرآن عند جد التخويف من هول العذاب إنما يستثير عواطفهم : فمن ذا الذى لا يحب أن يرى ولده فى أعلى منزلة وأعلى مكانة ؟

ومن يضمن حياة الوالد ليتحقق لأولاده هذا الأمل ؟

ربما تركهم بين لحظة وأخرى فى كفالة وصي لا يدرى ماذا سيصنع بهم !

يقول القرآن : « وليحسبن الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا[٢] .

فليستحضر كل وصي هذه الحقيقة لنفسه: الذرية الضعاف من لهم إلا تقوى الله والقول السديد . بهما يتهيأ للأبناء كل خير وإلا نزل بهؤلاء الضعاف ما أنزل هذا الظالم بمن فى حوزته من الأيتام « والمثل بالمثل والبادىء أظلم .

وهذا ماصنعه الله بالغلامين اللذين أخرج لهما الخضر كنزهما لأن أباهما كان صالحا : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك »[٣] .

إن الأوصياء آباء قبل أن يكونوا أوصياء وهم يتمنون — فيما لو عاجلهم الأجل وتركوا أطفالا — أن يكون الأوصياء عليهم عدولا أمناء تطبع الرحمة كل تصرفاتهم مع أولادهم . فلماذا لا يتمنون لأولاد غيرهم نفس مايتمنون لأولادهم ؟

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٣١٩

(٢) سورة النساء ٤/١٠ ، ٩ (٣) سورة الكهف ١٨/٨٢

إن من واجبهم أن يخشوا الله وأن يتقوه فيهم وأن يعاملوهم معاملة حسنة فلا يوجهوا إليهم من الأموال إلا مافيه السداد والرشد ولا يقربوا أموالهم إلا بالتي هى أحسن .

٦ - ما حكم مخالطة الأوصياء لليتامى؟

وإذا كان هذا هو حال من يقرب مال اليتيم فكيف تكون مخالطة الأوصياء لليتامى ؟

هل يأكل اليتيم وحده ويسكن وحده حتي لا يقع وصيه فى هذا الحرج؟ أم أن فى هذا إشعاراً له باليتم والانفصال عن الأسرة التي يعيش فيها ؟ كما أن هذا أمر شاق على النفوس وصعب فى التنفيذ ؟

روى أنه لما نزلت . « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما .. الآية .. تحامي الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أموالهم فشق ذلك عليهم فذكروه للنبي ﷺ فنزل قوله تعالى . « ويسألونك عن اليتامى ؟ قل . إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم » [١] .

وبهذه الإجابة الواضحة نعرف كيف تكون مخالطة الأوصياء لليتامى .. إذ لابد من التعرض لأحوالهم وأموالهم ومخالطتهم ولكن بطريق الإصلاح لا بطريق الإفساد .. والحرص على مصلحتهم لا استغلال ضعفهم . وهـــذه الحالة خير من الابتعاد عنهم خشية الوقوع فيما نهى الله عنه من أكل أموالهم بالباطل .. وإذا أصبح اليتيم عضواً فى الأسرة يأكل ويشرب ويلبس كفرد فيها فقد أوجب الله على الأوصياء أن يعتبروا اليتامي إخوانهم .. ومن واجب الأخوة التعاون والتناصر والتكافل وحسن اللقاء والحرص على ما ينفع أخاهم وكما قال الرسول ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه [٢] .

---

(١) سورة البقرة ٢/ ٢٣٠ (٢) متفق عليه .

وعلى طريقة التربية القرآنية لاتدع الآية الموصى يستغل هذه المخالطة لينمى ماله ويستهلك مال اليتيم إنما تقول . « والله يعلم المفسد من المصلح » وعلم الله لا يغيب عنه شيء وكل إنسان مجزى بنيته . « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » [1].

وتذكرهم برحمة الله التي تستحق الشكر فتقول . « ولو شاء الله لأعنتكم » وكلفكم مالا تطيقون ومنعكم من المخالطة وألزمكم أن تهيئوا لليتيم طعاماً وشراباً خاصاً ولكنه لطف بكم فأباح لكم هذا الأمر فليخف كل وصي ربه وليتق الله فيما كلفه به إلهه فان الله عزيز حكيم .

٧ - اليتيم الفقير ورعاية القرآن له ومحافظته على إنسانيته وكرامته ؟

هذا شأن اليتيم الذى ورث مالا وما أعطاه الله من حقوق فى المجتمع فكيف عالج القرآن مشكلة اليتيم الفقير الذى لا مال له ؟ وكيف حفظ إنسانيته وكرامته ؟

إن الله — جلت حكمته — لم يترك هؤلاء لعطف القلوب . يعطيهم من يشاء ويمنعهم من يشاء إنما عنى بهم وفرض لهم نصيباً فى المال يغنيهم عن ذل السؤال . فجعل لهم نصيباً فى التركة إذا حضروها قال تعالى . « وإذا حضر القسمة أولو القربي واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً » [2].

ومع أخذ نصيبهم كلام طيب لا يشعرون معه أن هذا تفضل وعطاء من الورثة : إنما هو حقهم أخذوه .

وإذا كان هذا الذى يأخذه اليتامى من أموال التركة محل خلاف : هل

(١) متفق عليه .

(٢) سورة النساء ٤/٨

هو من باب الصدقة أو الفرض ؟ وهل نسخ حكمه أم مازال مفروضاً فهناك بابان مفروضان فى المال العام يأخذ منهما اليتيم حقه دون حاجة إلى أن يسأل أحدا من الناس .

الأول : خمس الغنيمة : وهى ما كسبه المسلمون بعد قتال . قال تعالى : «واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . »(١)

ثانيهما : الفيء . وهو ما كسبه المسلمون من الكفار دون قتال . ولليتيم سهم مفروض فيه قال تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل(٢) .

وهكذا لم يدعهم الله للاحسان وحده إنما جعل لهم نصيبا فى بيت المال حتى لايكون اليتيم عرضة لأن يجوع يوماً ويشبع أخرى أو يكتسى آناً ويعرى آناً آخر .

وإذا لم يصل نصيب بيت المال إلى اليتيم أو لم يبلغه نصيبه فمجتمع الاسلام مجتمع متكامل متراحم . والله يجعل الانفاق على اليتيم مقرونا بالانفاق على أحب الناس إلى الانسان : أبويه وذى قرباه فيقول : «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل(٣) .

ويقول سبحانه — فى وصف أهل البر : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين(٤) .

ويجعل هذا الانفاق وسيلة للوقاية من عذاب النار ووصفا للمخلصين من عباده فيقول : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا(٥) .

---

(١) سورة الأنفال ٨/٤١
(٢) سورة الحشر ٥٩/٧
(٣) سورة النساء ٤/٣٦
(٤) سورة البقرة ٢/١٧٧
(٥) سورة الانسان ٧٦/٨

ويسوى بين إطعام اليتيم وفك الرقاب فيقول: فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة[1] .

ويحفظ الله لليتيم إنسانيته فيذكر رسوله بأنه كان يتيما فيقول : « ألم يجدك يتيما فآوى[2] ؟

وماذا ينتظر كل يتيم من مظاهر الرعاية من ربه أكثر من أن يختار سيد المرسلين من اليتامى ؟

ويوجه الله الأمر للمسلمين فى شخص رسول الله فيقول : « فأما اليتيم فلا تقهر ويجعل إيذاء اليتيم من سمات المكذبين بيوم القيامة فيقول : « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين[3] .

كما يهدد المجتمع الذى يضيع فيه حق اليتامى بالفناء والانهيار فيقول فى معرض الكلام عمن صب عليهم ربك صوت عذاب : « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين »[5] .

أرأيت كيف اعتنى الله باليتيم وكفله وجعل المجتمع كله له أبا يحفظه ويصله ويعطف عليه ؟

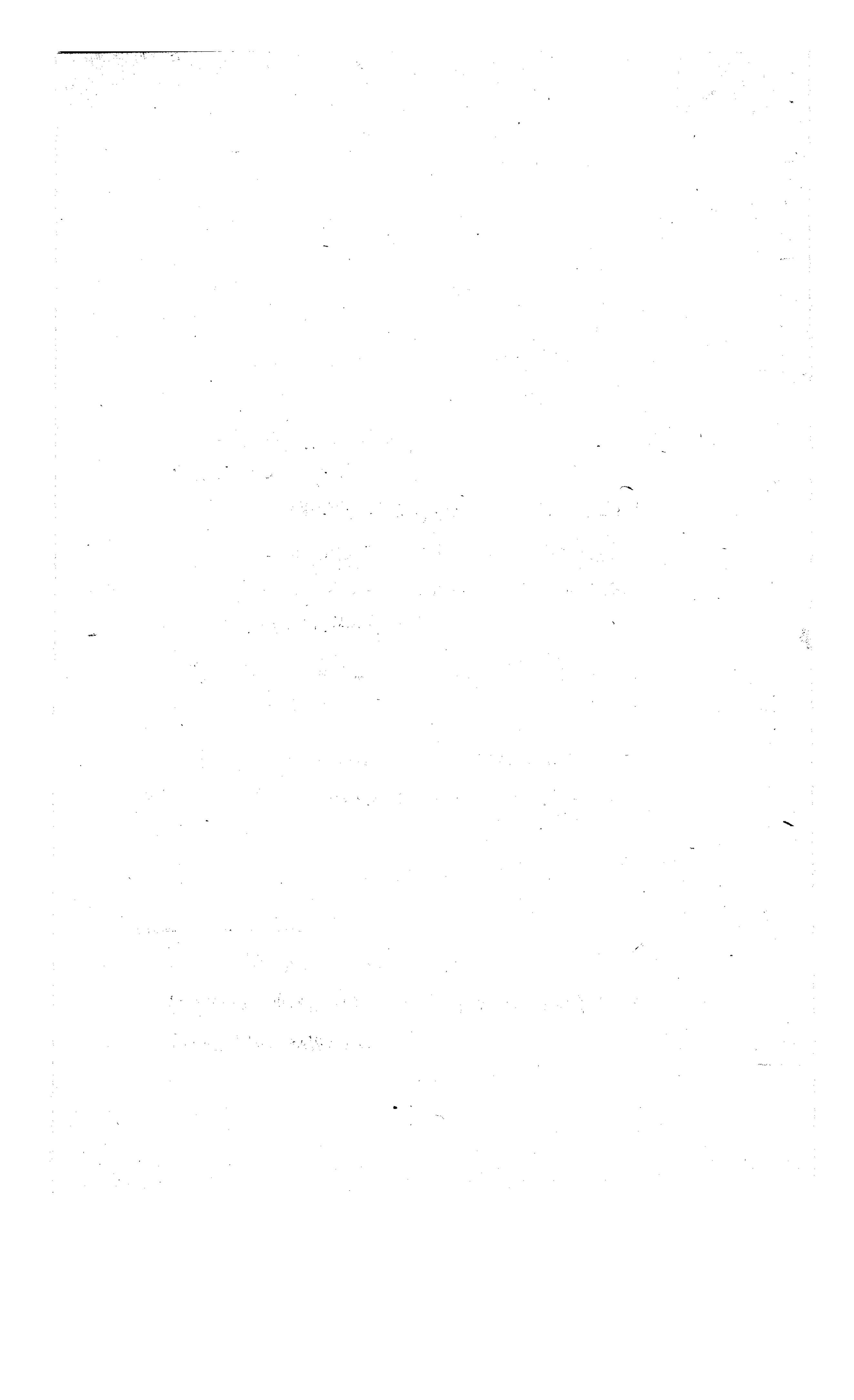
نعم إنها وصية خالدة نرددها ونعرف أن فى تطبيقها الخير كله . . إنها قوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده » .

---

(١) سورة البلد ٩٠ / ١١ — ١٦

(٢ ، ٣) سورة الضحى ٩٣ / ٦ ، ٩ (٤) الماعون ١٠٧ / ١ — ٣

(٥) سورة الفجر ٨٩/١٧ ، ١٨



الوصية السابعة :

قوله تعالى :

وأوفوا الكيل والميزان بالقسط
لا نكلف نفسا إلا وسعها

---

١ — المعانى اللغوية للكلمات . أوفوا — الكيل — والميزان — بالقسط وإعراب بالقسط ؟

٢ — علام يدل تطفيف الكيل والميزان ؟

٣ — لماذا أمر بإيفاء الكيل بعد النهى عن أكل مال اليتيم ؟

٤ — ارتباط المعاملات فى الإسلام بالعقيدة ؟

٥ — دروس من سورة المطففين ؟

٦ — عبرة من قصة شعيب وقومه ؟

٧ — ماذا تفهم من قوله تعالى : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ؟



١ - المعانى اللغوية للكلمات : أوفو - الكيل والميزان بالقسط

وإعراب بالقسط - وفائدة كلمة « بالقسط » بعد « أوفوا »

« أوفى ووفى: بلغ تمام الكمال يقال : درهم واف . وأوفيته حقه ووفيته إذا أتممته . وأوفى الكيل إذا أتمه ولم ينقص منه شيئا[١] .

والكيل : « بمعنى المكيال . يقال هذا كذا وكذا كيلا ولهذا عطف عليه بالميزان »[٢] .

والكيل والميزان : « هما الآلة التي يكال بها ويوزن . وأصل الكيل : مصدر ثم أطلق على الآلة . والميزان فى الأصل . مفعال من الوزن ثم نقل لهذا الآلة كالمصباح والمقياس لما يستصبح به ويقاس وأصل ميزان : « موزان » ففعل به ما فعل بميقات[٣] .

« بالقسط » : أى بالعدل لا بخس ولا نقصان . « ومنه : أقسط الرجل فهو مقسط ومنه قوله تعالى : إن الله يحب المقسطين . والقسط أيضاً : الحصة والنصيب يقال : تقسطنا الشيء بيننا .

وأما القسوط : فهو الجور والعدول عن الحق . وبابه : جلس . ومنه قوله تعالى : وأما القاسطون فكانو لجهنم حطباً[٤] .

« وبالقسط : حال من فاعل » أوفوا » أى : أوفوها مقسطين . أى متلبسين بالقسط .

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ج ١٣ ص ٢٣٤

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣٦

(٣) الفتوحات الإلهية ج ٢ ص ١٠٩

(٥) مختار الصحاح ص ٥٣٤

ويجوز أن يكون حالا من المفعول أى : أوفوا الكيل والميزان بالقسط أى تامين(١) .

وإذا كانت التوفية هى بلوغ تمام الكمال والقسط هو العدل دون بخس أو نقصان فتكون كلمة نقصان تأكيداً لهذه التوفية — أو أن التوفية من جانب البائع ويبقى جانب المشترى فليس من حقه أن يطلب الزيادة وهذا ماتفيده كلمة « بالقسط » يقول الفخر الرازى : أمر الله المعطى بإيفاء ذى الحق حقه من غير نقصان وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة . وهذا مانميل إليه.

٢ - علام يدل تطفيف الكيل والميزان

وتطفيف الكيل وبخس الميزان خسة فى النفس وضيق فى الأفق وجشع واستغلال . ولا يفعله إلا كل حقير من الناس وهو دليل الخبث والدهاء . وليست قيمته فى بعض حبات تزاد أو تنقص أو دراهم تضاف للميزان أو تبخس فيه إنما دلالتها على مرض نفس صاحبها وحاجة هذه النفس إلى العلاج ودلالتها على سوء الطوية والاجتراء على حدود الله ومن يجترىء على مثل هذا يجره إلى ما هو أعظم منه من حرمات الله .

٣ - لماذا أمر بإيفاء الكيل بعد النهى عن أكل مال اليتيم ؟

إن تطفيف الكيل والميزان فوق أنه خسة حقيرة هو سرقة وطمع ولذلك أمر الله بإيفاء الكيل بعد النهى عن أكل مال اليتيم . إشارة إلى الباعث فى الحالتين وهو هذه النفس المريضة التى تودى بصاحبها فى المهالك وتجعله يستغل ضعف الناس . فاليتيم ضعيف لا يعرف ما يصنع وليه فى ماله . والمشترى ضعيف لا يستطيع أن يتقن ما أتقنه المطففون من دهاء ومكر . ومجتمع تستغل فيه حاجات الناس وضعفهم هو مجتمع ضعيف غير صالح للحياة . إذلا قيام لمجتمع دون إحساس كل فرد فيه إنه مسئول عن الآخرين : يرحمهم ويقدر ضعفهم لا أن يظلمهم ويستغل جهلهم وضعفهم . وإذن فسرقة مال اليتيم كسرقة الكيل والميزان كلاهما سرقة واستغلال وظلم يأباه حس المؤمن وينفر منه وجدانه.

(١) الفتوحات الإلهية ج ٢ ص ١٠٩

٤ – ارتباط المعاملات فى الإسلام بالعقيدة ؟

وذلك أن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والدنيا وبين المعاملات اليومية والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج فكلها سواء من حيث الانبثاق من أصل واحد يقوم على أساس الاعتراف بوحدانية الله . ولذلك ساق هذه الوصية بإيفاء الكيل والميزان وهو يتحدث عن الأصل الجامع لكل هذه الوصية : ألا تشركوا به شيئاً .

ولقد توهمت المجتمعات فى العصر القديم والحديث أن الدين يجب أن ينعزل بعيداً عن واقع الحياة فقد قال قوم شعيب له : « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد أباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد » (١) .

لقد فهم هؤلاء أن الصلاة شيء والتقاليد والعادات ومواريث الآباء الضالة وتصريف الحياة وتعاملها شيء آخر . كما ادعى العالم فى العصر الحديث أن العبادات طقوس تؤدى فى بيوت العبادة أما الحياة بكل ما فيها من معاملات فهى خاضعة لأفكار البشر لا يحكمها قانون سماوى ولا يصرفها دستور ربانى .

والإسلام بعيد عن هذا الضلال فقد جعل وجود الإنسان ذاته – بما يحويه هذا الوجود من حركة ومشاعر — فى الليل أو النهار — خالصاً لله وحده : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »(٢) .

بل إن الشهوة يقضيها الإنسان عبادة يتقرب بها المرء إلى ربه لقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه : وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »(٣).

(١) سورة هود ١١ / ٨٧ .
(٢) سورة الأنعام ٦ / ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٣) رواه مسلم .

لحركة الإنسان وطعامه وشرابه وعمله يمكن — فى مدلول الإسلام — أن يكون عبادة يتقرب بها العبد لخالقه ويحصل بها على أعلى الدرجات . وكما يقول الرسول ﷺ : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا صيام وإنما يكفرها السعى على العيال »(١) .

٥ - دروس من سورة « المطففين »

لهذا توعد الله المطففين بأشد أنواع العذاب فقال : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون .. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٢) .

فالويل له فى الدنيا والآخرة :

فهو فى الدنيا ساقط الكرامة يفتح على نفسه أبواب النقم والشرور فتبور تجارته ويسوء حاله .

لقد خرج بهذا المسلك عن جماعة المسلمين يقول رسول الله ﷺ : « من غشنا فليس منا » (٣) .

ولم لا ؟ والرحمة قد فارقت قلبه والقناعة نزعت من نفسه فزعزعت الثقة به وفقدت البركة من شخصه ومن رزقه ؟

ومثل هذا له عذاب عظيم فى الآخرة تحمله كلمة «الويل» وهذا الاستفهام ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ ؟

فكيف يجيب هؤلاء الخائنون حين يقف الناس جميعاً أمام رب العالمين فيسأل كل عما قدمت يداه ؟

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية وابن عساكر عن أبى هريرة .
(٢) سورة المطففين ٨٣ / — ٦ ، ٧ .
(٣ رواه مسلم .

إن الله يجعل المطففين فجاراً يذوقون سوء العذاب : « كلا إن كتاب الفجار لفي سجين » .

وخيانتهم دليل غفلتهم وبعدهم عن الله : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .. كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » (١).

ومن هنا وجب أن يصلوا الجحيم : « ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون »(٢) .

إن تطفيف الكيل والميزان دليل النسيان لموقف الحساب والتكذيب بيوم الدين . وحق لهؤلاء أن يعيشوا أشقياء معذبين في الدنيا والآخرة : « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (٣) .

وفي موطأ مالك عن يحي بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال : « ما ظهر الغلول في قوم قط إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ولا فشا فيهم الزنا إلا كثر فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال إلا قطع عنهم الرزق ولا حكم قوم بغير الحق إلا وفشا فيهم الدم ولا ختر (غدر) قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو » (٤) .

وقال ابن عباس أيضاً : « إنكم معشر الأعاجم قد وليتم أمرين بهما هلك من قبلكم : الكيل والميزان » (٥)

(١ ، ٢) سورة المطففين ٨٣ / ١٤ — ٠٧ .

(٣) سورة طه ٢٠ / ١٢٤ .

(٤) رواه الطبراني عن ابن عباس .

(٥ القرطبي جـ ٧ ص ١٣٦ .

٦ ـ عبرة من قصة شعيب

وهذه قصة شعيب يسوقها الله عبرة وذكرى وآية لأولي الألباب :

والقصة تلخصها سورة العنكبوت فى آيتين حين تعرض مصائر الأمم المكذبة فتقول :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً . فقال ياقوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين[1] .

وتوضح هذا الإفساد ومظاهره سورة الشعراء حين يقول شعيب لقومه « أوفو الكيل ولاتكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين[2] .

كما تذكره سورة الأعراف فتقول : وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قدجاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين[3] .

وتشرحه سورة هود حيث تقول : « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩/٣٦،٣٧

(٢) سورة الشعراء ٢٦/١٨٠– ١٨٤

(٣) سورة الأعراف ٧/٨٥،٨٦

وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خيراً لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ(١) .

لقد جاء شعيب — عليه السلام — ينقذ قومه من جشعهم وطمعهم ويبين لهم الطريق الواضح ويربط هذا كله بمعرفة الله إلهاً واحداً : « ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

ويعرفهم أن الدين للحياة مصرفا ومهيمناً يقضى على كل ما فيها من فساد وينشر فيها العدل والأمان . فماذا كان موقف قومه منه ؟ ؟

لقد كذبوه وتعدوا له بكل صراط يصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجا . ورموه بالسوء فقالوا : إنما أنت من المسحرين » .

وبالكذب : وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين .

وطلبوا منه أن ينزل بهم ما يعدهم من عذاب فقالوا : « فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين » وعجبوا من دعوته « أن الدين للحياة .. فقالوا : أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو تفعل فى أموالنا مانشاء ؟

ولما أبطل الله حججهم قالوا : « يا شعيب مانفقه كثيراً مما تقول . وإنا لنراك فينا ضعيفا . ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز .

وأنذروه ومن معه بالطرد إن لم يعودوا إلى دين الآباء : قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا .

ولما لم يجد معهم نصحا كان وعد الله بالنصر المؤمنين . لقد أصاب

---

(١) سورة هود ١١ ٨٤-٨٦

هؤلاء المكذبين حر شديد فخرجوا مسرعين يطلبون الماء ويبحثون عنه ورأوا سحابة عظيمة حسبوها واقية لهم من حرارة الشمس وفيها الحياة لهم فاذا بها ترميهم بشرر وتصيبهم بالهلاك وأحسوا أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم وأن العذاب قد حل بهم قال تعالى : « فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم » (١).

وقال سبحانه : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » (٢) .

وهنا حزن شعيب على هلاك قومه ولكنه تذكر ضلالهم وكفرهم فسلي نفسه وقال : « يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » (٣) ؟

وقصة شعيب مثال يتكرر كلما بعدت البشرية عن دين الله لهذا كانت عناية القرآن فى وصاياه الخالدة بهذا الأمر الخطير جاء فى سورة الإسراء : « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا » (٤) .

كما جاء ذلك فى سورة الرحمن : « ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » (٥) .

وكانت هذه الوصية من الوصايا العشر حتى لا تقع أمة الإسلام فيما وقعت فيه امة شعيب : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » .

---

(١) سورة الشعراء ٢٧ / ١٨٩ .

(٢) سورة هود ١١ / ٩٤ ، ٩٥

(٣) سورة الأعراف ٧ / ٩٣

(٤) سورة الإسراء ١٧ / ٣٥

(٥) سورة الرحمن ٥٥ / ٨ ، ٩

٧ - ماذا نفهم من قوله تعالى

« لا نكلف نفساً إلا وسعها »

ولكن التوفية الكاملة فى الكيل والميزان شاقة ومراعاتها فى كل حال عسيرة فقد تزيد شيئاً طفيفاً وقد تنقص مما لا يمكن ضبطه . . فماذا يكون موقف المسلم من ذلك ؟

إن الله أرحم بخلقه من أنفسهم لايحملهم مالا يطيقون : « وماجعل عليكم فى الدين من حرج » (١) .

وهو سبحانه دائما يريد أن يخفف عنكم ولا يكلف الإنسان مالا يستطيع فعله فهو إذن « أمر سهل يسير لا تكلف نفس إلا وسعها فلا يؤاخذنا بما هو خارج عن حدود إرادتنا من زيادة طفيفة أو نقص يسير مادام حسن النية متوفراً . والمعاملات يسودها حب الأخ لأخيه وحرصه على مصلحته وتحريه لأداء الحق إليه كاملا دون بخس ولا نقصان » .

وهل رأيت أعظم من هذا التيسير حين رفع عن البائع مالا تطيب نفسه من من زيادة عن الحق ورفع عن المشترى مالا تميل إليه من نقص فيه . وقال بعض العلماء : لما علم الله سبحانه من عباده أن الكثير منهم تضيق نفسه عن تطيب للغير بما لا يجب عليها له أمر المعطى بإيفاء رب الحق حقه الذى هو له ولم يكلفه الزيادة لما فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها وأمر صاحب الحق بأخذ حقه ولم يكلفه الرضي بأقل منه لما فى النقصان من ضيق نفسه(٢) .

وهذا ما أوضحه الفخر الرازى كما سبق أن بينا .

---

(١) سورة الحج ٢٢ / ٧٨ .

(٢) تفسير القرطبي جـ ٧ ص ١٣٦

وإذن فهذه العبارة تبين أن الله لا يكلف المحال إنما التكليف فى حدود الطاقة ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

فما أرحم إلهنا العظيم وما أرفع دينه ومبادئه التى تحمل اليسر والتخفيف وتساير كل قوم استقامت فطرتهم . وتصلح لكل زمان ومكان .

الوصية الثامنة :

قوله تعالى:

وإذا قلتم فاعدلوا ـ ولو كان ذا قربى

---

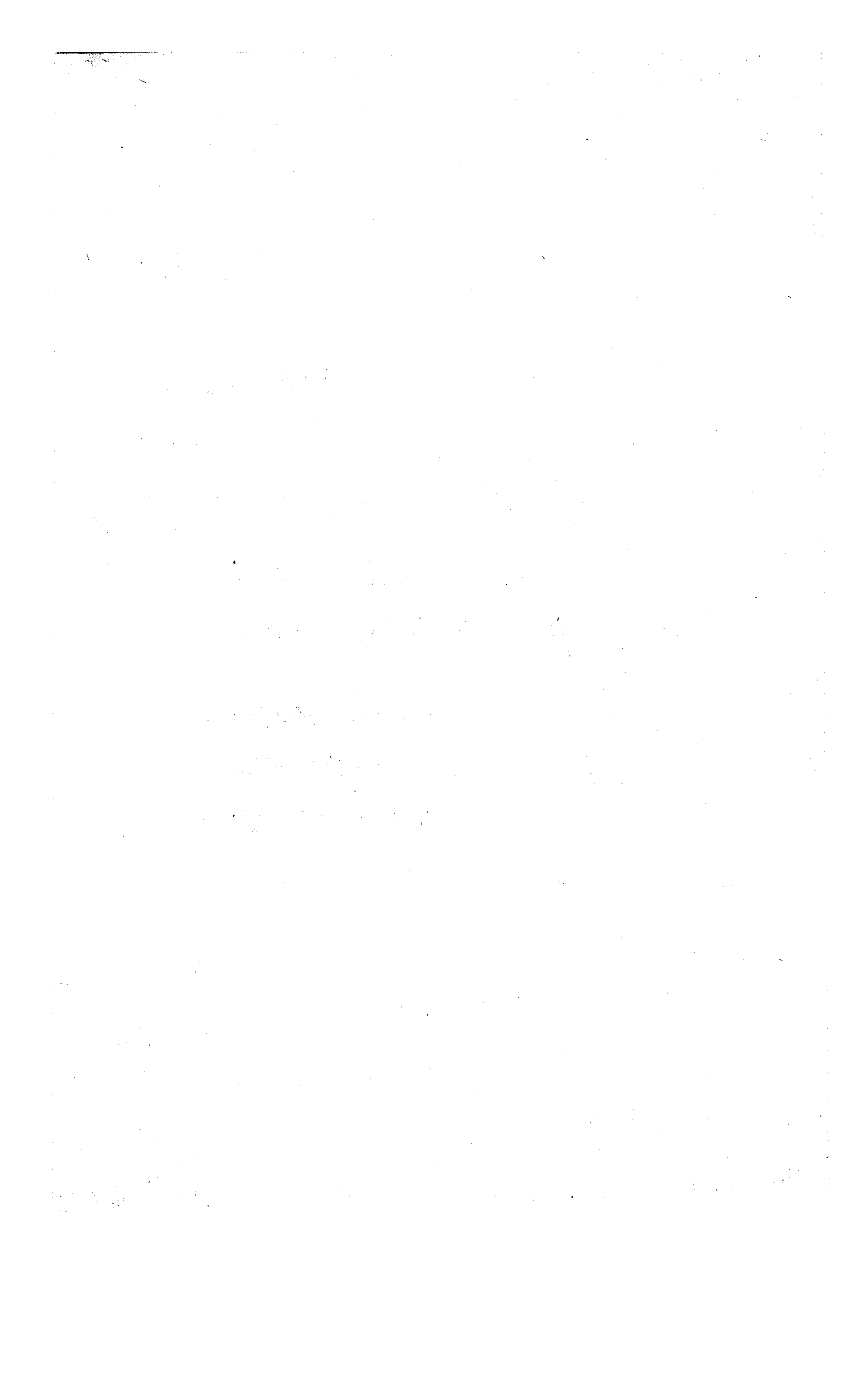
١ ـ المراد بالقول . وكيف يعدل الإنسان فيه؟

٢ ـ كتمان الشهادة . وشهادة الزور والانحراف فى القول . وما فى ذلك من أضرار .

٣ ـ العدالة في القول من مظاهر الإيمان .

٤ ـ حب العدل القائم على معرفة الله فوق حب ذوى القربى .

٥ ـ الواقع الإسلامى حقق العدالة الكاملة .



١ ـ المراد بالقول . وكيف يعدل الإنسان فيه ؟

حين نرى وعيد الله لمن طففوا الكيل وبخسوا الميزان وكيف أن هؤلاء لم يعدلوا بين الناس ولم يقوموا بما أمر به الله ولم يراعوا أخوة ولادينا. حين نرى هذا الظلم وما أعده الله لمن ارتكبه من ذلة وهوان ، نرى القرآن يعرض لنوع آخر من الجور والإنحراف ليضع له حداً لا يتخطاه إلا جاهل بهذا الدين يوبق نفسه ويخسرها ويشترى عرضاً زائلا بمغفرة وسعادة وخلود .

وإنها لوصية جامعة تأتى بعد الوصية السابقة لتتحقق بها العدالة فى أبهى حللها وأجمل صورها إنها قول الله تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

ونحن حين نرددها تتوارد هذه الخواطر :

١ ـــ ما المراد بالقول وكيف يعدل الإنسان فيه ؟

٢ ـــ وماذا فى كتمان الشهادة وشهادة الزور والإنحراف بالقول من أضرار ؟

٣ ـــ وكيف أن العدالة فى القول مظهر من مظاهر الإيمان ؟

٤ ـــ وكيف أن حب العدل القائم على معرفة الله فوق حب ذوى القربى ؟

٥ ـــ وهل الواقع الإسلامي حقق العدالة الكاملة أم هى مجـــرد وصايا وقرارات لم تنفذ كما هو مشاهد فى كل قرارات البشر ؟

والإسلام يقدر « الكلمة » ينطق بها اللسان فترفع أو تخفض وتدخل الجنة أو تذهب بصاحبها إلى النار ولذلك قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل بعد أن بين له معنى الإسلام والايمان ودله على أبواب الخير وأرشده إلى أعلى ما فى الاسلام وذلك هو الجهاد فى سبيل الله ثم قال عليه السلام : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ يقول معاذ : فقلت بلى يا رسول الله فأخذ عليه السلام بلسانه وقال: تكف عليك هذا . قلت : يانبى الله وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال :

ثكلتك أمك وهل يكب الناس على وجوههم فى النار . أو قال : على مناخرهم إلاحصائد ألسنتهم[١] ؟.

لذلك كان العدل فى القول مأمورا به لأنه أمانة يلزم أداؤها .

وكثير من المفسرين حمل العدل فى القول على أداء الشهادة فقط والأمر والنهى فقط فهل هذا صحيح ؟ .

يقول الفخر الرازي : « قال القاضي : وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل ما يتصل بالقول فيدخل فيه مايقول المرء فى الدعوة إلى الدين وتقرير الدلائل عليه بأن يذكر الدليل ملخصاً عن الحشود الزيادة بألفاظ مفهومة معتادة قريبة من الأفهام ويدخل فيه أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وافياً على وجه العدل من غير زيادة في الايذاء والايحاش ونقصان عن القدر الواجب . ويدخل فيه الحكايات التي يذكرها الرجل حتى لا يزيد فيها ولا ينقص عنها . ومن جملتها تبليغ الرسالات عن الناس فانه يجب أن يؤديها من غير زيادة ولا نقصان ويدخل فيه حكم الحاكم بالقول[٢].

ويلخص هذا ابن كثير فيقول : « يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد فى كل وقت وفى كل حال »[٣].

أرأيت كيف تناول القول كل ما يلفظ به الإنسان فى الدين والدنيا . . فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . وما يذكره الرجل من الحكايات فى الشهادة والحكم وفى تبليغ الرسالات عن الناس .. كل ذلك وغيره يجب العدل فيه دون زيادة أو نقصان .

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح

(٢) الفخر الرازى جـ١٣ ص ٢٣٥

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٩٠ .

٢ ـ كتمان الشهادة وشهادة الزور والانحراف فى القول

وما فى ذلك من أضرار

وليس أشد ضرراً من رجل تطلب منه شهادة حق فيخرس لسانه خوفاً من مجرم أو مجاملة لقريب أو صديق .

إنه بهذا ينشر الرذيلة ويعصف بالأمن ويودى بالطمأنينة من قلوب الناس ويقطع الصلة بين العدالة وكل ظالم فيعيث فى الأرض فساداً ويعبث بقيم المجتمع وأمنه وسلامته .. فهل هذا الطريق هو سبيل الحياة المشروعة ؟ وهل أدى كاتم الشهادة خدمة لنفسه أو لغيره ؟

إنه لبنة فى المجتمع الضخم يحاول كل عابث أن يهدمه ومن واجبه أن يعرف أن أداء الشهادة على وجهها تقوية وتدعيم لهذا المجتمع . . فالمجتمع أقام القاضي العادل نائباً عنه فى القصاص من المعتدين ومن حقه علينا أن نعينه على أداء واجبه بالشجاعة فى أداء الشهادة الحقة وإلا كان منكرها هو الذى تعمد أن تكوى الإنسانية بنار الجريمة وهو الذى حمى المجرم من أن تناله العقوبة أو يؤد به القانون .. وهو بذلك آثم مجرم . . لهذا قال الله تعالى : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه »[١].

واعتبره من أظلم الناس فقال سبحانه : « ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟؟ »[٢].

وأشد من هذا خطراً شهادة الزور لأنها التواء بالحق إلى درب مظلم وتضليل للعدالة وإهدار للحقيقة لذلك اعتبرها الإسلام من أكبر الكبائر . فعن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا .

---

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٨٣ .
(٢) سورة البقرة ٢ / ١٤٠ .

قلنا : بلى .. قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس . . وكان متكئاً فجلس وقال : ألا وقول الزور .. وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » (١) .

إن شهادة الزور ضربة قاصمة للحقيقة — ربما أهلكت أمة وأبادت شعباً لذلك حذر الرسول منها هذا التحذير الشديد كما أن الانحراف بالقول مهلكة وذلك لأنه أمارة النفاق . قال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » (٢).

وفى رواية : وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم . والمنافق يتناقض - دائماً - مع باطنه ولا يمكن أن يطبع على هذا المؤمن أبداً . . قال رسول الله ﷺ : « يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب » (٣) .

وسئل رسول الله ﷺ : « أيكون المؤمن جبانا ؟ قال نعم . . قيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم . . قيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا » (٤).

وهؤلاء الذين يتعرضون للدعوة إلى دين الله وكثيراً ما يزيدون فى القول ومن واجب الواحد منهم — كما قال القاضي — أن يذكر الدليل ملخصا من الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة معتادة قريبة من الأفهام ولكنهم يطمعون فى الزلفى من الناس والإكثار من الرواية والتظاهر بالعلم وهم - بهذا - يقضون على أنفسهم ودينهم . . قال رسول الله ﷺ : « إن كذبا على ليس ككذباً على أحد فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعدة من النار » (٥).

ولا بد من التمسك بالكتاب والسنة أمام هؤلاء الأدعياء فانهم ضلال وفتنة

---

(١) رواه البخارى .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه مالك .
(٥) رواه البخارى .

قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر أمتي أناس دجالون كذابون يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فاياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم » (١) .

وهناك لون من هذا الضلال شديد الخطورة .. وهو كذب الحكام على الشعوب فانه يضل الركب ويهلك القافلة ويقضي على الأمم لذلك قال الله فى فرعون : « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » (٢) .

ولأن كذبة الحاكم ليست ككذبة باقى الناس كان لها هذا الوعيد الشديد فى قول رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : الشيخ الزانى ، والإمام الكذاب ، والعائل المزهو » (٣) .

٣ ـ العدالة فى القول من مظاهر الايمان

ومن هـذا نعلم أن العدالة فى القول — بكل ألوان القول — مظهر من مظاهر الإيمان لذلك حين أمر الله الناس أن يعدلوا فى أداء الشهادة ناداهم بوصف الإيمان فقال : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله »(٤) .

واعتبر الله من ينحرف فى القول لا خلاق له ولا نصيب فى الآخرة وله الويل والعذاب من الله .. فعن ابن أبى أوفى : أن رجلا أقام سلعة فى السوق فحلف بالله لقد أعطيتنى بها مالم يعط ـ ليوقع فيها رجلا من المسلمين ـ فنزلت . « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» (٥).

---

(١) رواه مسلم .　　(٢) سورة الزخرف ٤٣ / ٥٤ ، ٥٥

(٣) البزار .　　(٤) سورة النساء ٤ / ١٣٥ .

(٥) سورة آل عمران ٣ / ٧٧ .

بل إن الإنسان ليمزح ويستهل الكذب فى مزاحه حيث أن مجال اللهو لاحرج فيه .. ولكن الإسلام الذى أباح الترويح عن القلوب لايحب أن تكون وسيلة ذلك الكذب فاعتبر من يفعل ذلك ناقص الإيمان قال رسول الله ﷺ . « لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى المزاح والمراء وإن كان صادقاً »(١) .

وتعهده بالويل والهلاك فقال . « ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب ويل له . ويل له(٢) .

وليس أدل على هذا من أن الله جعل المنافقين مخادعين لا إيمان لهم لأن ظاهرهم يخالف باطنهم فقال : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليـــوم الآخر !! وماهم بمؤمنون . يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون(٣) .

وعد شهادتهم برسالة رسول الله زوراً وبهتاناً وكفراً لأنها لم تصدر عن صدق ويقين فقال : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله !! والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون — ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون(٤) .

وكيف يكون كامل الايمان هذا الذى أضل الناس عن الحق ؟؟ قال تعالى: إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون(٥) إنه يعيش خاوياً من الايمان بعيدا عن قيمه وهداياته !!

إن الصدق فى القول طريق الايمان الصحيح والانحراف به سبيل إلى

---

(١) رواه أحمد . (٢) رواه الترمذى

(٣) سورة البقرة ٢ ٩،٨ (٤) سورة المنافقون ٦٣/١ — ٣

(٥) سورة النحل ١٦/١٠٥

الفجور والخروج من دين الله : ذلك قال رسول الله ﷺ : عليكم بالصدق فان الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فان الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا[١] .

٤ ـ حب العدل القائم على معرفة الله فوق حب ذوى القربى

إن المسلم حين يعدل فى قوله إنما ينبثق من قاعدة أصيلة تقوم على الاعتراف الكامل بالله رباً بيده النفع والضر وهذه المعرفة سبيل لتحرير الإنسان من ضعف يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد إذ هو محدود الأجل وفى نصرتها وامتدادها جيلا بعد جيل ضمان لامتداد أجله . وهو ضعيف وفى تقويتها تقوية لضعفه . ومن هنا كانت الخطورة وكان الانزلاق مع تيار الهوى النفسى حين يقف المرء موقف الشهادة لقرابته أو الشهادة عليهم . ولكن الإسلام يرتقى بالإنسان إلى درجة عالية ويربطه بالله وحده ويرتفع بحسه وشعوره إلى منزلة الحب الالهى الذى يطالبه بالعدل .

وهل هناك أعز على الانسان من نفسه ؟ نعم . أمر الله وحكمه وشريعته أعز عند المؤمنين من أنفسهم وأقرب الناس إليهم .

وهذا الشعور النبيل هو الذى يجعل المؤمنين لا يميلون مع الباطل فلا يغريهم جاه غنى يطمعون فى ثرائه ولا ضعف فقير وعجزة فيعطفون عليه — إن الاسلام يحرر صاحبه من كل هذا فالله أولى من كل هؤلاء وهو سبحانه أقرب للمؤمن من كل قريب يقول القرآن : « يأ أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولي بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً » [٢] .

---

(١) رواه البخارى

(٢) سورة النساء ٤ / ١٣٥

إنه الهوى والالتواء والإعراض عن الحق يجعل الإنسان يميل مع ضعفه فلا ينطق بكلمة الحق .. والله الخبير بكل ما يعمل هؤلاء لاشك يجازيهم بهذا الإنحراف .

والإسلام يرتفع بالمرء إلى قمة درجات العدالة حتى مع أعداء الله ومع من نكره من الناس قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا إن الله خبير بما تعملون » (١).

والمؤمن حين يرتفع عن الهوى فينطق بكلمة الحق إنما يطيع أمر ربه الذى يقول له : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الآمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً »(٢).

ويقول له : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى »(٣).

٥ – الواقع الإسلامى حقق العدالة الكاملة

هل رأيت عدالة مثل هذه العدالة ؟

لقد تحرر المرء فيها من كل شيء . . من خوفه وضعفه ونفسه ولم يبق له سوى هدف واحد : إرضاء ربه الذى خلقه .

وإذا كانت منظمات العالم تصدر القرارات حفاظاً على العدل فلا تعدو أن تكون حبراً على ورق وكلمات لا تجد لها أساساً من الواقع فان الإسلام صنع أجيالا من البشر حققت هذه العدالة فى صورة لم تكن تحلم بها الدنيا وتكاد

---

(١) سورة المائدة ٥/٨

(٢) سورة النساء ٤ / ٥٨ .

(٣) سورة النحل ١٦/٩٠

تكون أسطورة نرددها فى هذا الزمان وما هى إلا الحقيقة نقررها وننقلها دون تزيد أو التواء . .

ولا عجب فى ذلك فروح هذا الدين حين تخالط فؤاد الإنسانية تجعل من الرجل العادى البسيط قوة تقابل الظلم فى معاقله وتصدع بالحق لاتخشي فيه لومة لائم — كما تخلق من الحاكم طاقة تغير الحياة فلا يأبه بمظهره ومنظره ولا يأنف أن يسمع كلمة الحق من فرد مغمور فى رعيته . . وإن هذه الروح هى التى غمرت وجدان المجاهدين ومن ورائهم أمة استولى على قلب رجالها ونسائها حب الله وإعلاء كلمته فانطلقت هذه الأمة تضرب بمعاولها صروح الظلم فى كل مكان من العالم فتتهاوى هـذه الصروح فى ضعف واستكانة تحت أقدام المجاهدين .

وإنها لصراحة الحق والعدل فى القول هى التي جعلت أبا بكر عقب انتهاء البيعة له بسقيفة بنى ساعدة يقول :

أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى . . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله . . والقوى فيكم ضعيف عندى حتي آخذ الحق منه إن شاء الله . . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . .

وإنها للعدالة الحقة من الواقع الإسلامى نلمسها فى عمر بن الخطاب وقد ذهب بعض المسلمين إلى ابنته حفصة أم المؤمنين فقالوا لها : أبى عمر إلا شدة على نفسه وحصرا وقد بسط الله فى الرزق فليبسط فى هذا الفىء فيما شاء منه وهو فى حل من جماعة المسلمين . فلما كلمته حفصة فى ذلك كان جوابه . ياحفصة بنت عمر نصحت قومك وغششت إباك إنما حق أهلى فى نفسى ومالي فاما في دينى وأمانتى فلا .

ونلمسها في على بن أبي طالب حين نسمع عقبة بن علقمة يقول : «دخلت على على عليه السلام ـ فاذا بين يديه لبن حامض أذتني حموضته وكسر يابسه فقلت : يا أمير المؤمنين أتأ كل مثل هذا ؟ فقال لى : يا أبا الجنوب كان رسول الله يأ كل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا وأشار إلى ثيابه فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به .

وحين يروى هارون بن عنترة عن أبيه قال : « دخلت على على بالخورنق وهو فصل شتاء ـ وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه فقلت : يا أمير المؤمنين : إن الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال : والله ما أرزؤكم شيئاً وما هى إلا قطيفتي أخرجتها من المدينة .

كما تجد هذا التطبيق العملي لهذه الوصية الخالدة فى على ـ أيضاً ـ «وقد وجد درعه عند نصرانى فأقبل به إلى شريح قاضيه يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه وقال : إنها درعى ولم أبع ولم أهب . فسأل شريح للنصرانى : ماتقول فيما يقول أمير المؤمنين ، قال النصرانى ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندي بكاذب فالتفت إلى على يسأله يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك على وقال : أصاب شريح . مالى بينه . فقضي بالدرع للنصرانى فأخذها ومشي وأمير المؤمنين ينظر إليه . إلا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه ! ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين . اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق ! ! فقال على : أما ذا أسلمت فهي لك ! !»[1]

والتاريخ الإسلامى يشهد أمثلة كثيرة لهذا التطبيق العمـــلى . . إذ ليس

---

(١) البداية والنهاية : لابن كثير جـ ٨ ص ٣ ، ٤ ، ٥

الإسلام قوانين تذكر فى المناسبات أو مبادىء كمبادىء المنظمات العالمية لا واقع لها فى حياة الناس إنما هو العدالة التى شهدها العالم كله لأنها قائمة على قاعدة متينة من وحدانية الله والاعتراف بربوبيته فذلك هو الركيزة الأولى : ألا تشركوا به شيئا وعليها قامت هذه الوصية الخالدة :

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .



الوصية التاسعة :

قوله تعالى :

و بعهد الله أوفوا .. ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون

* * *

١ — ماذا يقصد بعهد الله ؟

٢ — بواعث الوفاء بالعهد كما يراها الإسلام ؟

٣ — الأنصار خير أمثلة للوفاء بالعهد ؟

٤ — آيات من كتاب الله تحث على الوفاء بالعهد ؟

٥ — الوفاء بالعهد مع الكافرين ؟

٦ — العهود التي يجب الوفاء بها ؟

٧ — تذكر الإنسان لماضيه من الوفاء بالعهد ؟



١ — ماذا يقصد بعهد الله

عهد الله : ما وصى به — سبحانه — فى كتابه وعلى لسان رسله والتزام الفطر السليمة بهذه الوصايا وتلك التعاليم .. فكأن هناك عهداً بين الله وخلقه يجب الوفاء به .

قال ابن جرير فى ذلك : « وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا . وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنة رسوله وذلك هو الوفاء بعهد الله (١) » .

ويرى أبو السعود : أن المراد بعهد الله : « ما عهد إليكم من الأمور المعدودة أو أى عهد كان فيدخل فيه ما ذكر دخولا أولياً .. أوماعاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور (٢) » .

والعهود التي يجب الوفاء بها درجات :

فأعلاها منزلة هو عهد الله الأزلى الذى أخذه على بنى آدم ألا يستجيبوا للشيطان وأن يتبعوا المرسلين . قال تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم (٣) » .

وهو يشير إلى هـذا العهـد الذى أخذه — سبحانه — على آدم — عليه السلام — بعد أن اتضحت عداوة ابليس له وهبط هو وحواء من الجنة وقد صدر هذا الأمر الإلهى عهداً وموثقاً من الله : « قال اهبطا منها جميعاً . بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداىَ فلا يضل ولا يشقى ومن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٣) سورة يس ٣٦ / ٦٠ ، ٦١ .

أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى [١] » .

فان لم يكن هناك رسل فالفطرة السليمة تستجيب دائماً لهذا العهد بما أودع الله فيها من استعداد للنظر والتفكر والتأمل والوصول إلى الحق عن طريق ذلك . وهذا ما جاءت به آيات الأعراف : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . . شهدنا . . أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون [٢] » .

ومع هذا فقد جرت حكمة الله ورحمته بخلقه ألا يعذبهم حتي يبعث إليهم رسولا . قال تعالى : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [٣] » .

فالرسول يذكر الفطرة هذا العهد فتستجيب له إن لم يصبها مرض الانحراف عن الحق فتحجب عن نور هذه الحقيقة .

ويلى هذا العهد ما أخذه رسول الله ﷺ — على أصحابه وأمته من عهود ومواثيق وهو يشمل كل ما أتى به وحى الله ودلت عليه شريعته ..

ومن أحق الشروط بالوفاء ما تعلق بكيان الأسرة . . لذلك أولى الإسلام عقد الزواج مزيداً من الرعاية فقال رسول الله ﷺ : « إن أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحللتم به الفروج [٤] » .

فلا يجوز لرجل تزوج امرأة أن يستخف بالرباط والعهد الذي التزم به

---

(١) سورة طه ٢٠ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) سورة الأعراف ٧ / ١٧٢ — ١٧٤ .

(٣) سورة الاسراء ١٧ / ١٥ .

(٤) متفق عليه .

وإلا فالويل له حين يلقى الله . يقول الرسول عليه السلام : « أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدى إليها حقاً خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زانٍ .. وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه وخدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقى الله وهو سارق (١) .

والعهود التي يعطيها الإنسان فى معاملاته مع الناس يلزم الوفاء بها فذلك أساس الثقة فى أى تعامل وفى الحديث : « المسلمون عند شروطهم (٢) » .

لكن مع مراعاة اتفاق هذه العقود مع حدود الشريعة وإلا فلا يكاف المسلم باحترام هذه العقود .

وربما كان أخطر مافى المعاملات مافيها من استدانة . والدين التزام وعهد فى الوفاء به برهان صادق على حسن إسلام المرء .. وقد اهتم الإسلام بهذا كل الاهتمام فطالب بكتابة الدين قلّ أو كثر إلى أجله كما اشترط أن يكون الكاتب عدلا حتى لا يزوّر وأن يُملى المدين حتى يكون ذلك إقراراً منه بالدين ولا بد من شاهدين وإلا فرجل وامرأتان . وعلى الشهداء أداء الشهادة فهى أمانة يلزم أداؤها .. وأعطى للدين كل الضمانات : فقرر الرهن مقابل الدين. قال تعالى موضحا كل ذلك : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله . . فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا مادعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا

(١) الطبرانى . (٢) البخارى .

إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ، وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم » [١] .

وفوق هذه الضمانات فقد رسم الإسلام للمؤمن خطاً لا يتعداه وخوف وحذر من المماطلة أو أكل الدين بالباطل فقال الرسول في ذلك : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[٢].

بل إن أعظم القربات عند الله لا تكفر هذه الخيانة فعن أبى قتادة رضى الله عنه قال : « قال رجل يا رسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله : نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر .. ثم قال : كيف قلت ؟ فأعاد .. قال : نعم إلا الدين فان جبريل أخبرنى بذلك » [٣].

والإسلام يحرم الاستدانة إلا لعذر واضطرار وإلا فهو القصاص العادل منه يوم القيامة .. فعن رسول الله ﷺ : « إن الدين يقتص من صاحبه يوم القيامة إذا مات إلا من تدين فى ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته فى سبيل الله يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم فلا يجد مايكفنه ويواريه إلا بدين ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه فان الله يقضي عن هؤلاء يوم القيامة »[٤] :

---

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٨٢ ، ٢٨٣ . (٢) البخارى .

(٣) مسلم . (٤) ابن ماجة .

وفى رواية أن رسول الله ﷺ قال : « يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتي يوقف بين يديه فيقال : يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم ألبس ولم أضيع ولكن أتي على إما حرق وإما سرق وإما وضيعة . . فيقول الله : صدق عبدى . . أنا أحق من قضي عنه فيدعو الله بشيء فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل الله » (١) .

أرأيت كيف يجب الوفاء بالعهود عامة وبهذا النوع خاصة وأنه لا يجوز أن تكون الديون لشهوة طارئة ولذة عاجلة . . أما من استهانوا بدينهم واقترضوا الديون الكثيرة من أهل الكفر والضلال يهوداً ونصارى وغيرهم ، واقترضوها بالربا فجرت عليهم البلاء مصداقا لقول الحق سبحانه : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم » (٢) .

وتنفيذاً لوعيده حيث قال : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » (٣) .

أمثال هؤلاء بعيدون عن روح الإسلام ونصه كما نطق بذلك القرآن فى كثير من آياته .

٢ - بواعث الوفاء بالعهد كما يراها الاسلام

والوفاء بالعهد يرجع إلى عاملين أساسيين يلخصهما قول الله تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما » (٤) .

فالتذكر والعزيمة القوية هما أساس الوفاء بكل عهد .

---

(١) أحمد .   (٢ ، ٣) سورة البقرة ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٤) سورة طه ٢٠ / ١١٤ .

ومن طبيعة الإنسان أن ينسى..هكذا خلقه الله لحكمة أرادها ولا بد له من مذكر دائماً لذلك قال الله لرسوله : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين »[١].

وكثير من أوامر القرآن ونواهيه وتوجيهاته يتبعها الله بأنها للتذكرة ولقوم يذكرون فيقول : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »[٢] .

وفى مطلع سورة النور : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون »[٣].

ويقول فى سورة الرعد : « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكرون أولو الألباب »[٤].

وفى سورة الزمر : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون »[٥] .

إلى غير ذلك من الآيات . ومن هنا أتبع الله أمره بالوفاء بالعهود بقوله : « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » .

ودائماً يوجه المؤمنين إلى إدامة الذكر دفعاً للغفلة والنسيان فيقول : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا »[٦] .

ويقول : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »[٧] .

---

(١) سورة الذاريات ٥١ / ٥٥ . (٢) سورة النحل ١٦ / ٩٠ .
(٣) سورة النور ٢٤ / ١ . (٤) سورة الرعد ١٣ / ١٩ .
(٥) سورة الزمر ٣٩ / ٢٧ . (٦) سورة الأحزاب ٣٣ / ٤١ ، ٤٢ .
(٧) سورة الجمعة ٦٢ / ١٠ .

ويجعل سر التقوى فى التذكر الذى ينجى المتقين من وساوس الشيطان فيقول : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »(١)

وينهانا عن الغفلة التى يسوق إليها حب المال والولد فيقول : «يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون(٢) » .

والعزيمة القوية لا تعرف التردد في وفائها بعهدها فهى تتحمل فى سبيل تنفيذه كل صعب وعسير ولو كلفها ذات نفسها وأساس هذه العزيمة إيمان كامل بوعد الله وإخلاص يسيطر على الأرواح فتهون التضحيات وترخص الدماء ولقد كان رسول الله ﷺ يأتيه الرجل أو الوفد من الناس فيبايعهم على أمور تتناسب مع أمراضهم وعلاجها فلا يعرف الواحد منهم غير الوفاء الكامل بعهده مع رسول الله :

عن عوف بن مالك قال : كنا عند النبي تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : نبايعك يارسول الله قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية قال : ولا تسألوا الناس شيئاً . قال عوف بن مالك فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه(٣) » وإنها لدقة الوفاء بعهد رسول الله هى التى جعلت هذا النفر يحرص على تنفيذ هذه البيعة .

وما أحرانا أن نتعلم الوفاء للاسلام من هؤلاء فهو عهد وأمانة ألقاها بين أيدينا سوف نسأل عنها أمام الله .

---

(١) سورة الأعراف ٢٠١/٧ (٢) سورة المنافقون ٩/٦٣

(٣) مسلم .

٣ ـ الأنصار خير أمثلة للوفاء بالعهد

وهل رأيت أعظم وفاء من أنصار رسول الله الذين امتدحهم ربهم فقال : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(١) .

ولقد بقى عهدهم الذى قطعوه على أنفسهم فى بيعة العقبة دليلا على معدنهم النقى ورجولتهم وإيمانهم وكان التزامهم الوفاء بهذ العهد ومحبتهم لهذا الدين من الأسباب التى جعلتهم يقدمون دماءهم فى غزوة بدر وما تلاها من غزوات الرسول عليه السلام . وعلى هذا الموثق كان الرسول يعتمد فى الملمات :

فعن أنس قال : « لما كان يوم حنين أقبلت هوزان وغطفان وغيرهم بذراريهم ونعمهم ومع رسول الله يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقى وحده فنادى يومئذ نداءين يخلط بينهما شيئاً : التفت عنه يمينه فقال : يا معشر الأنصار فقالوا : لبيك يارسول الله نحن معك أبشر . ثم التفت عن يساره فقال : يامعشر الأنصار فقالوا : لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك وهوعلى بغلة بيضاء فنزل فقال : أنا عبدالله ورسوله فانهزم المشركون وأصاب غنائم كثيرة فقسمها بين المهاجرين والطلقاء ولم يعط منها الأنصار شيئاً فقالوا : إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطى الغنائم غيرنا ؟ فبلغه ذلك فجمعهم وقال : يا معشر الأنصار ما شيء بلغنى عنكم ؟ فسكتوا ! ! فقال : يامعشر الأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون بمحمد — ﷺ — تحوزونه إلى بيوتكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله رضينا فقال رسول الله : لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار »(٢).

وهم من أول يوم دخلوا فيه هذا الدين أمثلة حية للوفاء بعهودهم بل إنهم

---

(١) سورة الحشر ٥٩/٠ (٢) البخارى .

زادوا على ما قطعوه على أنفسهم من حماية الدعوة داخل المدينة والدفاع عن رسول الله ضد أي خطر . . فعندما خرج للقاء عير أبي سفيان وأفلتت منه واضطر إلى القتال ووقف يستشير أصحابه فيما يفعل وقام المقداد بن عمرو — وهو من المهاجرين — فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسي : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكن نقول : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتي تبلغه .. عند ذلك كان ﷺ يريد رأى الأنصار الذين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم فقال : أشيروا على أيها الناس .. وإنما يريد الأنصار فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله .. قال : أجل! قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هـذا البحر لخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

وهكذا يكون الوفاء بالعهود . وهكذا تكون الرجولة والإيمان الصادق لقد أبلى الأنصار — حقاً — أحسن البلاء وضحوا بأرواحهم وأموالهم فى سبيل الله وضربوا فى ذلك أروع الأمثال : روى أنس بن مالك قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله : غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدنى الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع . فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى اعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعنى أصحابه — وأبرأ إليك مماصنع هؤلاء — يعنى المشركين — ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ : الجنة ورب النضر إنى لأجد ريحها من دون أحد ..

قال سعد : فما استطعت يارسول الله ما صنع ثم تقدم قال أنس : فوجدنا

به بضعا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم ووجدناه وقد مثل به المشركون فما عرفته إلا أخته بشامة أو ببنانه .

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : « من المؤمنين رجالا صدقوا ما عاهـــدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا[١] .

والواقع أن كل دعوة ترنو إلى النجاح إلى أمثال هؤلاء الذين ضحوا بالدنيا كلها فكان لهم عز الدنيا والآخرة ورضى الله عنهم أجمعين .

٤ ـ آيات من كتاب الله تحث على الوفاء بالعهد

وإنما وفى الأنصار وأصحاب رسول الله ـ عليه السلام ـ بعدهم لأن شعور الإيمان بتنفيذ أمر الله أصبح مطلبهم كما هو مطلب كل من سار على دربهم . فقد توالت آيات القرآن تحث على الوفاء بعهد الله وتخوف وتحذر من الغدر قال تعالى : « وأوفو بالعهد إن العهد كان مسئولا[٢] .

وقال سبحانه : وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون[٣] .

وبين جل جلاله أن الوفاء بالعهد صفة الصادقين البررة فقال فى آية البر : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[٤] . ومن أوصاف أصحاب العقول

---

(١) رواه البخارى . والآية من سورة الأحزاب ٢٣/٣٣ .

(٢) سورة الإسراء ٣٤/١٧ .

(٣) سورة النحل ٩١/١٦ .

(٤) سورة البقرة ١٧٧/٢ .

الراجحة الوفاء بعهد الله قال تعالى : إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق[١] .

وقال في أوصاف المؤمنين : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون[٢] .

كما أن الغدر ونقض العهد دليل سخط الله والبعد عن رحاب الإيمان قال تعالى : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار [٣] . وبين القرآن أن نقض العهد ضعف وضياع وفقدان للثقة فقال بعد الأمر بالوفاء بالعهد : « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون[٤] .

والإسلام لا يعرف وسيلة لنقض العهـد ولو كانت الدنيا بأسرها فانها عرض زائل ومتاع قليل .. ومن الناس من يشترى متعة زائفة بنقضه لعهد الله وهذه زلة تقضى على الأمم كما تهلك الأفراد ولذلك تتوالى الآيات فى سورة النحل لتبين هذه الحقيقة فتقول : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .[٥] .

ويوضح سبحانه صفة أهل الكتاب فى أسلوب عام يتناول كل من اتبع طريقهم فيقول : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك

---

(١) (٣) سورة الرعد ١٣/٢٠،٢٥

(٢) سورة المؤمنون ٢٣/٨، وسورة المعارج ٧٠/٣٢ .

(٤ ، ٥) سوره النحل ١٦ / ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ .

لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولاينظر إليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم »[١] .

ويحدثنا القرآن عن سر إهلاك القرى فيقول : « وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » [٢].

ويبين سبحانه مدى قيمة ما يلتزم به الإنسان تجاه ربه وذلك وهو يحدثنا عن بيعة الحديبية فى أسلوب يحمل الوعد والوعيدفيقول : «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون‌الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » .

ويقول : « لقد رضي‌الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » [٣].

وهكذا نرى كثيراً من آيات الكتاب تحث على الوفاء بعهد الله وتحذر من نقضه‌مماجعل الصالحين على توالى الأزمان يعرفون قيمة الوفاء وكيف يوفون بعهودهم تاركين أهل الغدر والخيانة لغدرهم وخيانتهم لهم اللعنة ولهم سوء الدار .

٥ - الوفاء بالعهد مع الكافرين

وكيف ينقض مؤمن عهده . . وإسلامه يجعل الوفاء بالعهد واجباً لامع المؤمنين فحسب بل مع الكافرين المسالمين الذين لهم ذمة الله ورسوله مادامو‌ا عند عهودهم . يقول القرآن : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند

---

(١) سورة آل عمران ٣ / ٧٧ .

(٢) سورة الأعراف ٧ / ١٠٢ .

(٣) سورة الفتح ٤٨ / ١٠ ، ١٨ .

رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين » [١] .

ويقول الرسول عليه السلام : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه » [٢] .

وقال : « أيما رجل أمن رجلا على دمه ثم قتله فأنا من القاتل برىء وإن كان المقتول كافراً » [٣] .

فاذا ما نكث هذا الكافر عهده فالإسلام يعرف دواءه . . إنه القضاء على رءوس الضلال قال تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ » [٤] .

إنها قتال هؤلاء حتي يستسلموا لحكم الإسلام : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » [٥] .

فهو — إذن — قتال أئمة الكفر من المشركين ومن لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ماداموا قد نقضوا عهدهم مع جماعة المسلمين .

وإنها لروعة الوفاء الذى جاء به هذا الدين حين اعتبر المشركين القاصدين بيت الله الحرام أصحاب شعائر تحترم وأنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وأن عداوة أهل مكة للمسلمين ليست مسوغا للاعتداء يقول الله تعالى :

---

(١) سورة التوبة ٩ / ٧ .

(٢) رواه أبو داود .   (٣) ابن حبان .

(٤ ، ٥) سورة التوبة ٩ /١٢ ، ١٣ ، ٢٩ .

« يأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائرالله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولاالقلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من الله ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » (١).

فلما واصل المشركون حربهم لدعوة الإسلام ولم يحترموا أى عهد أو جوار قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » . وقال : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٢).

والإسلام يصل إلى منزلة سامية حين يوجه رسول الله إلى إعلان من نقضوا عهودهم بعزمه على معاملتهم بالمثل فلا يجوز أن يباغتهم قبل هذا الاعلان فقال : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » (٣).

والرسول — عليه السلام — يقول مؤكداً هذا الأمر : « من كان بينه وبين قوم عهداً فلا يحلن لهم عهداً ولا يشدنه حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء » (٤).

وقد سبق حديث رسول الله ﷺ في الوصية الخامسة الذى رواه الشيخان والترمذى عن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما .

ولقد ذهب أبو حنيفة على ما هو المشهور إلى الأخذ بمبدأ القصاص بالنسبة للمعاهد والذمى وأفتى بقتل المسلم إذا قتل معاهدا أو ذميا .

---

(١) سورة المائدة ٥ / ٢ (٢) سورة التوبة ٩ / ٢٨ ، ٣٦ .

(٣) سورة الأنفال ٨ / ٥٨ . (٤) رواه الترمذى وأبو داود.

٦ـ العهود التي يجب الوفاء بها

هل كل عهد يجب الوفاء به؟ ربما أعطى بعض الناس عهدا أن يفعل ذنباً من الذنوب ويدفعه كبره وتعاميه عن الحق إلى الوفاء بعده وكأن هذا من مميزات الرجولة وعنوان الشهامة .

والإسلام لا يعرف عهداً في معصية فان الإسلام خير محض وحب للحق وحده والعهد في ذلك كاليمين ،فاليمين موثق يلتزم المرء بأدائه وقد قال رسول الله ﷺ « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير[١] .

فاذا أصر على كبره ونفذ ما اعتزم عليه من المعصية فقد استجلب سخط الله وغضبه ففي الحديث : « لأن يلج[٢] أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطى كفارته التي افترض الله عليه[٣] .

فاذا ما كان العهد في معروف فليشحذ همته وليستجمع عزيمته في إمضاء هذا العهد حتى ينال رضى الله ومثوبته .

٧ـ تذكر الانسان لماضيه من الوفاء بالعهد

كثير من الناس تفتر هممهم وتغرهم المظاهر الخادعة فينسون ماضيهم أو يتناسونه — وهم كمن يصر على تنفيذ معصية كلاهما من نوع مريض مفتون بحب المظهر . فماضي الإنسان قطعة من وجوده لا بد من الاعتراف به على حقيقته والوفاء لهذا العمر المنقضي .

(١ رواه مسلم .
(٢) يلج : يتمادى فيه ولا يكفر .
(٣) البخاري .

والذين يغنيهم الله بعد فقر فيتنكرون لأيام خلت من حياتهم ويقطعون حبال العهد ويحيون في وهم وضلال هؤلاء يلقون جزاء جحودهم وإنكارهم .

وهم صورة تتكرر في كل زمان ومكان نلمسها فى حياتنا المعاصرة وفى تاريخ الأمم السابقة :

يروي أبو هريرة رضي عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمي أراد الله أن يبتليهم فبعث ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لونا حسناً وجلداً حسناً . قال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل فأعطاه ناقة عشراء وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني هـذا الذى قد قذرنى الناس فمسحه فذهب عنه وأعطي شعراً حسناً .. قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر فأعطى بقرة حاملا وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأعمي فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله على بصرى فمسحه فرد الله عليه بصره قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم .. فأعطى شاة والداً « حاملا » فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم . ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ولا بلوغ لى اليوم إلا بالله . ثم بك .. أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيراً أتبلغ به فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة !! فقال : كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله ؟؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر !! فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . وأتى الأقرع فى صورته فقال له مثل ذلك ورد عليه مثلما رد الأول فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .. ثم أتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال له مثلما قال . فقال : قد كنت أعمى فرد الله على بصري فخـذ ما شئت ودع ما شئت فو الله لا أجهدك اليوم لشيء أخذته لله !! فقال : أمسك مالك

فانما ابتليتم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك »[١].

أرأيت كيف كانت خيانة الماضي نقضاً للعهد وتنكراً للأيام ؟ وكيف كان جزاء الله لمن غدر ولمن وفي ؟

وتاريخ الصحابة يشهد حادثة من هذا النوع لرجل يدعى ثعلبة كان فقيراً يتمنى أن يغنيه الله فقال لرسول الله ﷺ : أدع الله أن يرزقنى مالا فقال رسول الله ﷺ : ويحك ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه !! ثم سأل رسول الله مرة أخرى فقال عليه السلام : أما ترضي أن تكون مثل نبي الله فوالذى نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهباً لسارت . قال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذي حق حقه . فقال رسول الله ﷺ : اللهم ارزق ثعلبة مالا . فاتخذ ثعلبة غنما فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتي ترك الصلوات إلا الجمعة وهى تنمى كما تنمى الدود حتي ترك الجمعة فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار .. فقال رسول الله ﷺ : ما فعل ثعلبة ؟ قالوا : يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة . . فأخبروه بأمره فقال : يا ويح ثعلبة .. ياويح ثعلبة .. ياويح ثعلبة .. وأنزل الله جل ثناؤه : خذ من أموالهم صدقة .. الآية ونزلت فرائض الصدقة وبعث الرسول عليه السلام من يقبض من ثعلبة زكاة ماله . فقال : ما هذه إلا جزية انطلقا حتي أرى رأيى وحينئذ نزل قول الله سبحانه : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب »[٢].

(١) البخارى .

(٢) سورة التوبة ٩ / ٧٥ — ٧٨ .

ورجع هذا المنافق ليتظاهر باعطاء الزكاة فرفض الرسول أن يأخذها منه كما رفضها أبو بكر وعمر وعثمان . . وهلك ثعلبة جزاء ما أخلف وعده مع الله [١] .

إن الوفاء بالعهد ركن تقام عليه حياة المسلم وتشاد عليه أمة الإسلام وما أحوجنا إلى التذكير المستمر حتى نوفى بكل ما أخذه الله علينا من عهود . وما أحوجنا أن نتذكر هذه الوصية الخالدة الجامعة :

« وبعهد الله أوفوا .. ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٤ باختصار .

الوصية العاشرة :

قوله تعـالى :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

---

١ ــ اللغة والإعراب والمعنى العام للآية .

٢ ــ الصراط المستقيم . . ما هو ؟

٣ ــ الصراط المستقيم كما جاء فى القرآن والسنة .

٤ ــ كيف يصل الإنسان إلى الإستقامة ؟

٥ ــ سبل الشيطان طريق الظلال .

١ - اللغة . . والاعراب والمعنى العام للآية

الصراط والسراط والزراط : الطريق ، « وقد قرأ ابن عامر : سراط بالسين . وحمزة : بين الصاد والزاى والباقون بالصاد صافية وكلها لغات[١] .

والإستقامة : فى وضعها ضد الاعوجاج والاستواء فى جهة الانتصاب يقال استقام العود أو العمود : إذ اعتدل والسبل جمع سبيل وهو الطريق .

وتفرق : أصلها تتفرق : أى تفرقكم أيادى سبأ[٢] .

وأن هذا صراطى : « قرئت بتشديد النون وإسكانها مع فتح الهمزة ، وبتشديد النون مع كسر الهمزة :

فعلى تشديد النون وفتح الهمزة هى فى موضع نصب . أى : واتل أن هذا صراطى قال الفراء : ويجوز أن يكون خفضا أى وصاكم به وبأن هذا صراطى ، وتقديرها عند الخليل وسيبويه : ولأن هذا صراطي كما قال : وأن المساجد لله . والمخففة مثل المشددة إلا أن فيه ضمير القصة والشأن أى : وأنه هذا . . فهى فى موضع رفع ويجوز النصب ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد كما قال عز وجل : « فلما أن جاء البشير » أما على الكسر: فهى على الاستئناف أى الذى ذكر فى هذه الآيات : صراطي مستقيما[٣] .

« مستقيما » حال مؤكدة من صراطى . . والعامل فيها اسم الإشارة .

« وتفرق » منصوب باضمار أن بعد الفاء في جواب النهى .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٤ ص ٢

(٣) الكشاف : للزمخشرى جـ ١ ص ٥٣٥ .

(٣) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ ٧ ص ١٣٢ .

و « بكم » يجوز أن يكون مفعولا به فى المعنى أى فتفرقكم ، ويجوز أن يكون حالا أى وأنتم فيها[١] .

يقـــول أبو السعود : « الباء فى « بكم » للتعدية أى : فتفرقكم حسب تفرقها أيادى سبأ فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم كما قيل من أن « ذهب به » فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من « أذهبه »[٢] .

« ذلكم : » إشارة إلى ماص من اتباع دينه وترك غيره من الأديان[٣] .

والمعنى :

هذا الذى تلوته عليكم وأوضحته لكم عن طريق الوحى الإلهى وليس ظنا ولا وهما ولا هوى ، وما أثبته لكم من دلائل الوحدانية والربوبية وما بينته من بطلان عاداتكم وتقاليدكم التى تخالف ما أمر به الله فأضرت بكم وبمجتمعكم هذا كله هو طريقى . . وهو طريق الله معتدلا لا اعوجاع فيه فيجب عليكم أن تتبعوه ولا تسيروا وراء شهواتكم وشياطينكم فتتفرقوا فى كل طريق وتضلوا فى شعاب الحياة ولا تصلوا إلى غاية أو هدف ويحيا أفرادكم ومجتمعاتكم فى شقاء مصدره بعدكم عن الحق وعدم خوفكم من الله .. والله قد وصاكم باتباع ذلك كله ليربى فيكم الإحساس المرهف والصلة الوثيقة به والمعرفة الحقة بقدره فتصلوا إلى مرتبة التقوى وهى أساس كل خير وصلاح .

---

(١) الفتوحات الإلهية : للجمل جـ٢ ص ١١٠

(٢) أبو السعود جـ٢ ص ١٤٧ .

(٣) القرطبى جـ ٧ ص ١٣٨ .

٢ ـ الصراط المستقيم : ما هو ؟

الصراط المستقيم : هو طريق الحق ، وقيل : ملة الإسلام . وقيل : إنه النبي — ﷺ — وصاحباه . وقد عرض هذا الرأى على الحسن رضي الله عنه فوافقه، وصدقه وأثنى على قائله ، وكلها آراء متقاربة : فمن أحب النبي وصاحبيه واتبع سنتهما كان متبعا لكتاب الله ، وكتاب الله هو : ملة الإسلام ودستوره الخالد ، والإسلام : هو طريق الحق وما سواه طرق الباطل والضلال .

ولكن وضع الآية هنا فى ختام الوصايا وفى أواخر السورة يجعلنا نتساءل عن سر ذلك فعلنا نستشف بعض معانى الصراط المستقيم . وهو قريب إلينا حبيب إلى نفوسنا ميسر لكل من أراده كما نفهم ذلك من الإشارة إلى الصراط بكلمة « هذا » وهى إشارة للقريب .

لقد تحدثت سورة الأنعام — كما سبق — عن حقيقة الإله العظيم وقدرته وعلمه وتنزهه عن كل وصف ذميم . وردت أمر الكون كله إليه وأثبتت أنه الحاكم والحكم إليه وحده فى كل شأن من شئون الحياة وأن ما اصطنعته المجتمات الجاهلية من عادات فى الأموال والأولاد والثمار والأنعام : أوهام زائفة ليس لها فيها من دليل عقلى أو نقلى ، فالحياة لله فيجب أن تخلص له وحده وأن تحمل عنوان الاسلام والاستسلام لمن أنشأها وخلقها — وبعد أن تصل السورة فى جولاتها إلى تتبع مواطن كل داء لتصف له الدواء تنادى المجتمع الانسانى . تنادى الخلق ـ فى رفق ـ للاستماع إلي واهب الحياة والخبير بخباياها وأسرارها والذي يعلم ما يصلحها . تناديهم لتربيهم بهذه الوصايا الخالدة وتعرفهم كيف تكون عبادة الله وحده لا شريك له وكيف تنشأ الأسرة الصالحة وكيف ينتشر الأيمان فى أرجاء الارض وكيف يعامل اليتيم وتصان الحقوق وتقوم المعاملات على الصـــدق والثقة وكيف يلتزم الانسان بعهد الله فيطبع على الوفاء .

وبعد هذه الحملة الضخمة على الشرك وأوهامه وبيان الطريق الواضح المستقيم للحياة المستقرة الآمنة هنا يعرض القرآن الكريم هذا الصراط ويرشد إلى اتباعه حتى لا نضل إذا ما استجبنا لداعي الشيطان فيقول: وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

إنه إذن : ماحملت هـذه السورة من معان وما ألقاه الله من وصايا . وهل الاسلام غير التوحيد النقى الذى لا تشوبه شائبة الشرك وما ينبنى على هذا الاعتقاد من آداب خلقية وتشريعات إلهية وتنظيم لمجرى الحياة الدافق لينطلق باسم الله وعلى بركته . فهذا هو الصراط المستقيم ، وهذا هو الاسلام كما أراده الله .

يقول أبو السعود : وأن هذا صراطى : إشارة إلى ما ذكر فى الآيتين من الأمر والنهى .. قاله مقاتل ، وقيل : إلى ما ذكر فى السورة فانها بأسرها فى إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة (١) .

٣ - الصراط المستقيم كما جاء فى القرآن والسنة ؟

القرآن مورد كل ظامىء وسند كل قول وإمام كل حجة فلنتجول فى رياضه بحثا عن مدلول الصراط المستقيم عسى الله أن يهدينا إليه ويدلنا عليه .

ولقد وردت كلمة « الصراط » فى القرآن ٤٥ مرة .. معرفة ونكرة ، كما جاءت مادة « الاستقامة » ٤٧ مرة وكلا اللفظين يلقيان أضواء كاشفة على ما يتمناه كل مسلم من الهداية التى يطلبها دائماً إلى الصراط المستقيم .

فالصراط المستقيم اعتراف بربوبية الله وحده ، وعبودية مخلصة له سبحانه

---

(١) أبو السعود جـ٢ ص ١٥٠ .

كما ورد فى دعوة عيسى لقومه : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هـذا صراط مستقيم » (١) .

وهو اعتصام بالله وركون إليه والتجاء إلى حماه ونبذ لما عداه وذلك بالتمسك بكتابه والعمل بسنة رسوله قال تعالى : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » (٢) .

وقال سبحانه : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما » (٣) .

والصراط المستقيم غاية القرآن ووظيفة الرسول عليه السلام . قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » (٤) .

وقال تعالى : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » (٥) .

وقال : « وإنك لتهـدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض » (٦)

ولم لا يدعو إليه محمد ﷺ والله عز وجل على هذا الصراط ؟ هكذا قال هود لقومه : « إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » (٧) .

---

(١) سورة آل عمران ٣ / ٥١ . (٢) سورة آل عمران ٣ / ١٠١ .
(٣) سورة النساء ٤ / ١٧٤ ، ١٧٥ .
(٤) سورة ابراهيم ١٤/ ٢ ، ٣ . (٥) سورة المؤمنون ٢٣ / ٧٣ ، ٧٤ .
(٦) سورة الشورى ٤٢ / ٥٢ ، ٥٣ . (٧) سورة هود ١١ / ٥٦ .

وقال سبحانه : « هذا صراط على مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين »[1].

وابراهيم أبو الأنبياء مهدى إلى هذا الطريق قال تعالى : « إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم »[2].

وموسى وهارون يقول فيهما المولى سبحانه : « وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم »[3].

والأنبياء جميعاً يقول فيهم القرآن : « واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم »[4].

ورسولنا العظيم على هذا الطريق سائر : قال تعالى « يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم »[5].

ولهذا أمره ربه أن يثبت على طريقه لأنه طريق الحق وما عداه طرق الضلال فقال له : « فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم »[6].

وأن يعلن ذلك فى وجه كل مكابر : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »[7].

---

(١) سورة الحجر ١٥ / ٤١ ، ٤٢ .

(٢) سورة النحل ١٦ / ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) سورة الصافات ٣٧ / ١١٧ ، ١١٨ .

(٤) سورة الأنعام ٦ / ٨٧ . (٥) سورة يس ٣٦ / ١—٤ .

(٦) سورة الزخرف ٤٣ / ٤٣ .

(٧) سورة الأنعام ٦ / ١٦١ ، ١٦٢ .

والهداية إلى هذا الصراط فضل راجع إلى مشيئة الله . قال تعالى : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » [١].

وقال : « والله يدعو إلى دار السلام ويهـــدي من يشاء إلى صراط مستقيم » [٢].

ولكن هذه الهداية — مع أنها تفضل راجع إلى مشيئته — هى أيضاً منحة يمنحها سبحانه للمتعرضين لها المتوجهين إلى مصدرها السائرين فى ركابها :

قال تعالى : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذاً لأتيناهم من لدنا أجراً عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما » [٣].

وقال سبحانه : « قد جاء كم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » [٤].

وصفة الإيمان هى التي جعلت رب العزة يتولى هداية من اتصفوا بها فيقول جل جلاله : « وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » [٥].

وشياطين الإنس تقف — دائماً — تصد عن هذا الصراط ولذلك قال شعيب لقومه : « ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا » [٦].

وهم فى ذلك كشياطين الجن الذين قالوا بلسان إبليس : « فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » [٧].

---

(١) سورة الأنعام ٦ / ٣٩ .
(٢) سورة يونس ١٠ / ٢٥ .
(٣) سورة النساء ٤ / ٦٨ .
(٤) سورة المائدة ٥ / ١٥، ١٦ .
(٥) سورة الحج ٢٢ / ٥٤ .
(٦، ٧) سورة الأعراف ٧ / ٨٦، ١٦

ولهذا أخذ الله عهـده على بنى آدم ألا يعبدوا الشيطان فينحرفوا عن طريق الله ولذلك يسأل سبحانه هؤلاء الضالين سؤال تقريع وتبكيت فيقول: ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون » [١] .

ومن هنا كان الالتزام بهذا الطريق صعباً وشاقاً ويحتاج إلى علم ربانى وصلة وثيقة بالله يقول القرآن : « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » [٢].

فجعل العلماء هم أصحاب الرؤية الواضحة لما أنزله الله على رسوله يرونه وحده هو الحق الذى لاشبهة فيه وهو الذى يرشد إلى طريق الله المستقيم .

وكانت أشق آية نزلت على رسول الله ﷺ : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » [٣].

يقول ابن عباس : « مانزل على رسول الله ﷺ فى جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هـذه الآية ولذا قال صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه حين قالوا له : أسرع إليك الشيب يا رسول الله ؟ قال : « شيبتني هود وأخواتها » [٤].

وذلك لأن الاستقامة تكون بحسب المعرفة فمن كملت معرفته بمولاه عظم عنده أمره ونهيه فاذا سمع « كما أمرت » علم أنه مطالب باستقامة تليق بمعرفته بعظمة سيده وجلال مولاه .

ولأجل هذه المجاهدة التي تحتاج دائماً إلى فضل الله كلف الله المؤمنين أن

---

(١) سورة يس ٣٦ / ٦٠ — ٦٢ .　　(٢) سورة سبأ ٣٤ / ٦ .

(٣) سورة هود ١١ / ١١٢ .

(٤) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٧١١ ط الأولى بالمطبعة البهية المصرية .

يهتفوا من أعماقهم فى كل صلاة : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » (١) .

وكان جزاء المستقيمين عظيما عند الله قال سبحانه : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم » (٢) .

فمعرفة الله والاستقامة على هذا الطريق سبيل الوصول إلى هذا المقام الرفيع لأن ذلك هو الإسلام بكل ما فيه . . ولذلك سأل سفيان بن عبد الله رسول الله ﷺ فقال : قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك ؟ قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » (٣) .

والاستقامة دعوة الأنبياء والصالحين يستجيب لها من شاء الله هدايتهم ويلبي دعوتها الإنس والجن ولذلك يقول الله فى القرآن : « إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (٤) .

ويقول فى شأن الجن : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » (٥) .

وهى الاعتدال والكمال قال تعالى : « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم » (٦) .

---

(١) سورة الفاتحة ١ / ٧ . (٢) سورة فصلت ٤١ / ٣٠ — ٣٢ .
(٣) مسلم . (٤) سورة التكوير ٨١ / ٢٦ — ٢٩ .
(٦) سورة الأحقاف ٤٦ / ٢٩ ، ٣٠ . (٥) سورة الملك ٦٧ / ٢٢ .

وعندها يقف المؤمنون لايتنازلون أمام ضغط الباطل وقوته وهم يصرخون فى وجه الظالمين : « كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » (١).

ويعلن رسول الله ﷺ أن هذا طريقه ويدعو إلى اتباعه فيقول : « وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سـبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

وقد أوضح رسول الله ﷺ حدود هذا الصراط فى الحديث الذى رواه أحمد عن النواس بن سمعان الأنصارى عن رسول الله ﷺ قال : « ضرب الله مثلا صراطاً مستقيما وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول : يأيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتعوجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط فاذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فانك إن تفتحه تلجه : فالصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله تعالى . والأبواب المفتحة محارم الله تعالى وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله عز وجل والداعي فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم » (٢).

وفى ذلك يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه فى الجنة وعن يمينه جواد (طرقات) وعن يساره جواد وثم رجال يدعون من مر بهم فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط انتهى إلى الجنة ثم قرأ ابن مسعود : «وأن هذا صراطى مستقيما . الآية »(٣).

---

(١) سورة طه ١٠ / ١٣٥ .

(٢) رواه أحمد والحاكم .

(٣) تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٢٣٠ ، تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣٨ ، ط دار الكتب المصرية ١٩٣٨ م .

٤ - كيف يصل الانسان إلى الاستقامة ؟

الاستقامة على طريق الله مطلب عزيز وصعب ولكنه يسير على من يسره الله عليه .

وتبدأ بتقويم الإنسان لجوارحه وتعديل ما يصدر عنها ووزنه بميزان الخوف والرجاء حتى تعتاد الخير وتستقيم على عمل البر والطاعة ، ثم إقامة القلب وتطهيره وتهذيبه وتنظيفه من الأخلاق السيئة والآفات الذميمة كالحقد والحسد والكبر والعجب والنفاق والرياء ويصل الإنسان بتطهير القلب وإحكام عمل الجوارح إلى الاستقامة فلا يصدر في حياته إلا عن أمر ربه ولا يعرف له سيداً ولا سنداً إلا إلهه ، ومتى اعتاد المرء ذلك فى حياته وراقب الله فى كل حاله أصبحت الاستقامة له سجية والخوف من الله له عادة ووصل إلى بر الأمان وكان مع من لاخوف عليهم ولاهم يحزنون .

يقول أحد العارفين بالله : الاستقامة : توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ويقين بلا تردد وتفويض بلا تدبير . وهـذا مقام عظيم لا يصل إليه إلا المجاهدون الأخيار .

ويقول آخر : الاستقامة : « اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج القويم » .

وقال ثالث : « الاستقامة كمقام الشكر وهو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله من عبادة مولاه بما يستطيع على الأوجه الأقوم والطريق الأكمل » (١) .

---

(١) الأربعين حديثاً النووية بشرح النبراوي ص ١٣٧ .

٥ ـ سبل الشيطان طريق الضلال

لا يتضح الليل حتى يشرق النهار ولا تعرف قيمة الصحة حتى يذاق المرض ولا يدرك الغنى إلا إذا وجد الفقر . وكذلك الاستقامة لا يتزوق حلاوتها ولا يتنسم عبيرها إلا من رأى وعرف سبل الشيطان وأدرك أنها ضالة مضلة تؤدى إلى الحيرة والحسرة والشقاء .

فالاستقامة طريق واحد لا يضل فيه أحد ولا يلتوى هنا وهناك لأنه لا عوج فيه ، أما سبل الشيطان فانها كثيرة متشعبة ، وربما كان هذا بعض ما نفهمه من إفراد كلمتي : الصراط والسبيل وجمع كلمة السبيل فى قوله : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

وإذن ما هى سبل الشيطان ؟

يقول القرطبي نقلا عن ابن عطية : «وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدل والخوض فى الكلام ، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد ، قال مجاهد في قوله : ولا تتبعوا السبل قال : البدع» .

ولفظ البدع عام يؤدى إلى مسالك شتى كلها ضلالات وكلها من تزيين الشيطان واستغلاله لهوى النفس وأمراضها مما لا يتنبه له إلى قلة من الناس .

«قال الأوزاعي : قال ابليس لأوليائه من أي شيء تأتون بنى آدم ؟ فقالوا من كل شيء قال : فهل تأتونهم من قبل الاستغفار ؟ قالوا هيهات ذلك شيء قرن بالتوحيد . قال : لأبثن فيهم شيئا لا يستغفرون الله منه ، قال : فبث فيهم الأهواء.

وطريق النجاة منها هو التمسك بما كان عليه الرسول وأصحابه قال أبو العتاهية : عليكم بالأمر الأول الذى كانوا عليه قبل أن يتفرقوا ، قال عاصم الأحول فحدثت به الحسن فقال : قد نصحك والله وصدقك .

وربما كان طريق البدع اختراع فى الدين جر إليه الجهل بأن الزيادة فى شعائر الإسلام ممكنة .

« رأى أبو موسى الأشعرى قوما فى أيديهم حصي فى المسجد يعدون به التكبير والتهليل فجاء ابن مسعود وأخبره وذهبا إلى المسجد حيث القوم حلقا حلقا فوقف عليهم ابن مسعود فقال : ما هذا الذى أراكم تصنعون ؟

قالوا : يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح فقال : فعدوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألا يضيع من حسناتكم شيء . ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم !! أو مفتتحى باب ضلاله ؟

قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن . ما أردنا إلا الخير فقال : وكم من مريد للخير لا يصيبه » .

والأمر سهل ميسور : لابد من ترك البدع فكلها ضلالات والاستماع إلى رسول الله يحدد طريق الله فى وضوح .. روى ابن ماجة وغيره عن العرباض ابن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا : يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع !! فما تعهد إلينا ؟

فقال : قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدى إلا هالك . من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى .. عضوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمور المحدثات فان كل بدعة ضلالة وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً فان المؤمن كالجمل الأنف (٢) حيثما قيد انقاد .

---

(١) الأنف : ككتف : المأنوف وهو الذى عقد الخشاش أنفه وهو لايمتنع على قائده للوجع الذي به .

وطرق الشطان متشعبة لا يحصيها العد ومنبعها : اتباع هوى النفس . .
قال تعالى : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين »(١) .

وقال سبحانه : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا »(٢) .

ومن أراد النجاة من هذه السبل كلها سار فى سبيل واحد هو سبيل الله وهو الذى أوضحه رسول الله ﷺ فيما يرويه ابن مسعود قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطا ثم قال : هذه سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وخطوطاً عن يساره ثم قال : هذه سبل على كل سبل منها شيطان يدعوا إليها ثم قرأ هـذه الآية : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه »(٣) .

---

(١) سورة القصص ٢٨/٥٠ .
(٢) سورة الفرقان ٢٥/٤٣ .
(٣) ما جاء من الأحاديث وأقوال العلماء فى معنى سبل الشيطان نقلا عن القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ٧ ص ١٣٧ — ١٤٥ .

نظرات فى الوصايا

١ — وأن هذا صراطى مستقيما :

هل هى الوصية العاشرة ؟

٢ — لماذا جاء ختام الآيات بهذا الترتيب :

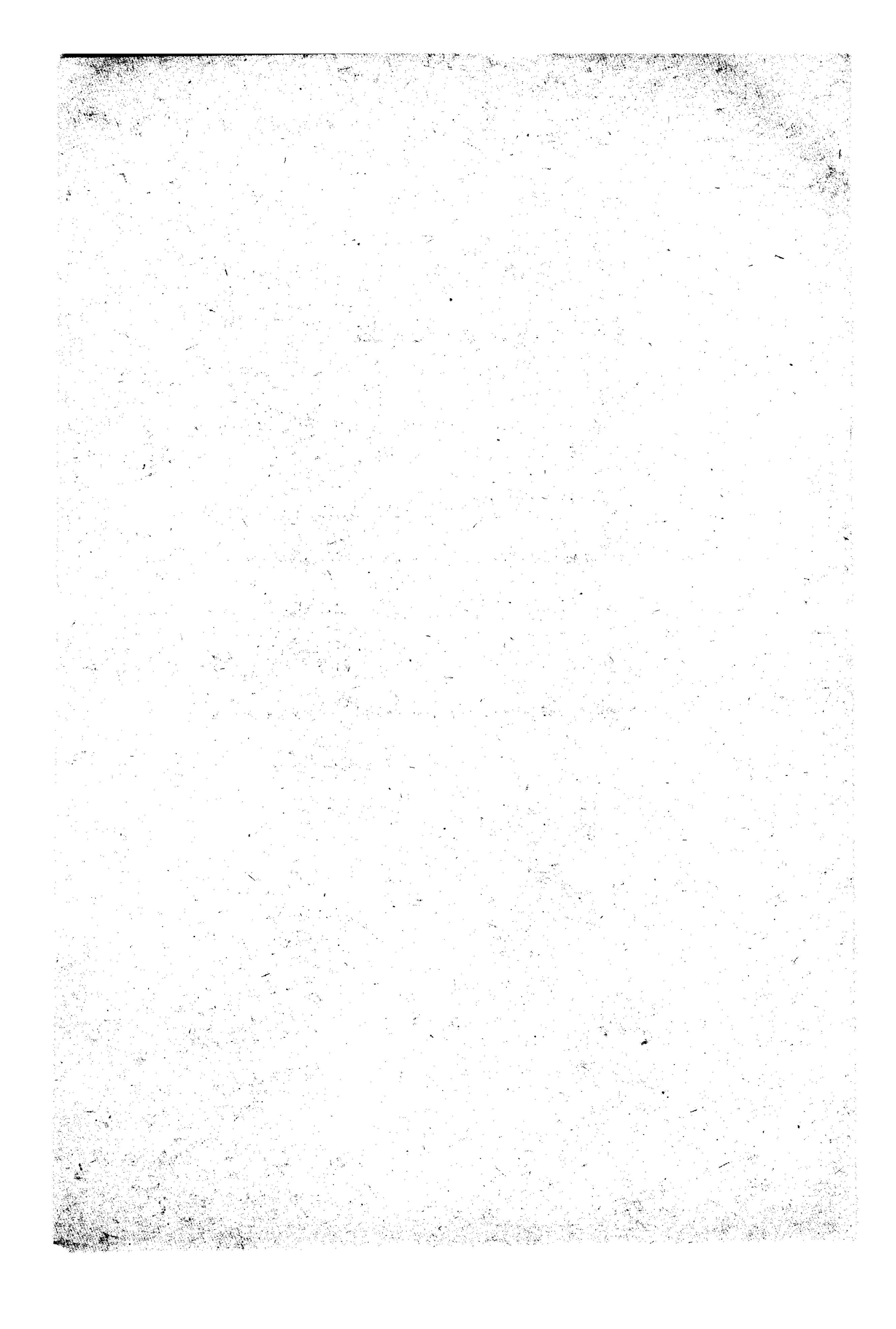
لعلكم تعقلون ، لعلكم تذكرون ، لعلكم تتقون ؟

٣ — الوصايا العشر وما قيل فى فضلها ؟

٤ — مقارنة بين وصايا الإسلام وغيرها .

٥ — هذه الوصايا هى الطريق الوحيد لإنقاذ البشرية المعذبة .

٦ — الأمة الإسلامية مثال فريد ؟



١ - « وأن هذا صراطي مستقيما » .. هل هي الوصية العاشرة ؟

يرى أبو السعود أنها ليست الوصية العاشرة : فانه قبل أن يذكر الآية وأن هذا صراطي مستقيما » قال : « وهذه أحكام عشرة لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار[١] » .

وكأنه رأى أن لا يعد الكيل والميزان وصية واحدة بل وصيتين وتكون الاستقامة جامعة لكل هذه الأحكام العشرة لا وصية مستقلة .

إلا أن جمهور المفسرين يرى أنها من تمام العشرة وأن ما سبق تسع وصايا :

يقول أبو حيان - معللا مجيء لعلكم تعقلون في الآية الأولى ، ولعلكم تذكرون في الآية الثانية - « لما كانت الخمسة المذكورة قبل قوله « لعلكم تعقلون » من الأمور الظاهرة الجلية مما يجب تعقلها وتفهمها ختمت بقوله « لعلكم تعقلون » . ولما كانت هذه الأربعة خفية غامضة لابد فيها من الإجتهاد والذكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال ختمت بقوله « لعلكم تذكرون[٢] » .

وهذا ما رآه الفخر الرازي حيث قال : « التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها والتكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية أمور خفية غامضة . . إلخ[٣] » .

---

(١) تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٢) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص ١١٠ للعلامة الجمل .

(٣) الفخر الرازي جـ ١٤ ص ١ .

والحق مع جمهور المفسرين فان الوفاء بالكيل والميزان لا يمكن أن يكون وصيتين ولعل هذا ما يفهم من توجيه الأمر لتوفيتهما معا حيث قال : سبحانه « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » .

وربما أوقع أبا السعود فى هذا الوهم أن الصراط المستقيم عام فلا يمكن جعله وصية مستقلة . . ولكن : أليس العدل فى القول عاماً بعد أن عرفنا أنه يتناول القول والفعل وأنه لا بد من الاعتدال فى كل الأمور ؟ ؟ والوفاء بالعهد : أليس — كذلك — عاما ؟ ؟ فتوحيد الله وبر الوالدين والمحافظة على النفس البشرية والبعد عن أكل مال اليتيم وتوفية الكيل والميزان والعدل فى القول والعمل . كل ذلك من الوفاء بالعهد . ! ! فلا عجب أن ينتقل القرآن إلى وصية جامعة : هى وجــوب اتباع صراط الله المستقيم والابتعاد عن سبل الشيطان .

٢ - لماذا جاء ختام الآيات بهذا الترتيب ؟

ختام الآيات الثلاث هكذا : لعلكم تعقلون . . لعلكم تذكرون . لعلكم تتقون . فما السر فى هذا الترتيب ؟ لعل ما ذكره أبو حيان والفخر الرازى يكشف لنا هذا السر . وقد سبق قولها ونحن نؤكد أن الأمر باتباع الصراط المستقيم هو الوصية العاشرة . وبعد أن بين أبو حيان سر ختام الآية الأولى بقوله تعالى : لعلكم تعقلون والثانية بقوله تعالى : لعلكم تذكرون . قال : « ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر تعالى باتباعه ونهى عن سيئات الطريق . ختم ذلك بالتقوى التى هى اتقاء النار . إذ إن من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية[1] .

ولم لا ينجو النجاة الأبدية ويحصل على السعادة السرمدية من اتبع صراط الله المستقيم وقد عرفنا أن الإشارة فى قوله تعالى : وأن هذا صراطى مستقيما .

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص ١١٠ للعلامة الجمل .

إلى ما جاء فى سورة الأنعام كلها ؟ وهذا سر ختام هذه الوصايا بالتقوى . فان من التزم بما تحمله سورة الأنعام من هداية وإرشاد وصل إلى مرحلة التقوى وهى المطلب الرفيع للانسانية به تحيا فى أمان وتصل إلى منازل السعداء.

ومن أسرار ختام هذه الوصايا بقوله — لعلكم تتقون . ما قاله النسفى مبينا سر هذا الترتيب : « ذكر أولا تعقلون ، ثم تذكرون ، ثم تتقون لأنهم إذا عقلوا تفكروا ثم تذكروا أى اتعظوا فاتقوا المحارم[1] .

٣ - الوصايا العشر - وما قيل فى فضلها

هذه الوصايا الالهية جاءت بها كل الشرائع ونادت بها رسالات السماء على مر الأجيال .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب من عمل بهن دخل الجنة ومن كفر بهن دخل النار[2] .

وعن كعب الأحبار : « والذى نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء فى التوراة[3] .

وعن ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا سفيان بن حسين عن الزهرى عن أبى ادريس الخولانى عن عبادة بن الصامت قال رسول الله ﷺ : أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » حتى فرغ من ثلاث آيات . ثم قال : فمن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه[4] .

---

(١) تفسير النسفى ج٢ ص ٤١ (٢) الفخر الرازى ج ١٤ ص ٣

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٣٦ (٤ تفسير ابن كثير ج١ ص١٩١

وقد روى عن ابن مسعود أنه قال: «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ الذى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً .. إلى قوله: لعلكم تتقون » (١).

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: « لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا وأبو بكر معه فوقف رسول الله ﷺ على منازل القوم ومضاربهم فسلم عليهم وردوا عليه السلام وكان فى القوم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان مفروق أغلب القوم لساناً وأوضحهم بياناً ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال له: إلام تدعو يا أخا قريش ؟؟ فقال النبى ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله وأن تؤوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد . فقال له مفروق: وإلام تدعو — أيضاً — يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله ﷺ: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . الآيات الثلاث فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه .

فتلا رسول الله ﷺ: « إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. الآية » فقال له مفروق: دعوت والله يا قرشى إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وقال هانىء بن قبيصة: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ويعجبنى ما تكلمت به ، فبشرهم الرسول إن هم آمنوا ، بأرض فارس وأنهار كسرى فقال له النعمان: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش ؟

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٨٧ .

فتلا رسول الله ﷺ : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ثم نهض رسول الله ﷺ [١].

٤ — مقارنة بين وصايا الإسلام وغيرها ؟

والوصايا العشر كما ذكر ابن عباس لم ينسخهن شيء من جميع الكتب : وردت بها التوراة وجاء بها الإنجيل ولذلك قال الله عقبها : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » [٢].

ولكن أسلوب القرآن فريد فى تربيته شامل لكل أدواء البشر لا يدانيه فى إحاطته بخلجات النفوس كتاب وما ذلك إلا لأنه كتاب الإنسانية عامة ودينها الخالد إلى أن تنتهى هذه الحياة !!

وإذا أردنا أن نقارن بين وصايا الإسلام وغيرها من الوصايا فى معتقدات غير المسلمين فهذه وصايا البوذية العشر تقول :

١ — لا تزهق روحا .

٢ — لا تأخذ مالا تستحق .

٣ — لا تزن .

٤ — لا تكذب أو تغش أحداً .

٥ — لا تسكر .

٦ — كل باعتدال ولا تأكل شيئا بعد الظهر .

---

(١) تفسير القرآن الكريم للامام الأكبر محمود شلتوت ط الرابعة لدار القلم ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٢) سورة الأنعام ٦ / ١٥٤ ، ١٥٥ .

٧ – لا تشهد رقصاً ولا تسمع غناء أو تمثيلا .

٨ – لا تلبس حليا ولا تتعطر ولا تتخذ زينة .

٩ – لا تنم فى فرش باذخة .

١٠ – لا تقبل ذهبا ولا فضة .

والوصايا الخمس الأولى واجبة على كل بوذى على الدوام ، والخمس الأخيرة واجبة الاتباع فى أيام الصوم ، أما الرهبان فان عليهم اتباع الوصايا كافة فى سائر الأوقات[1] .

وهذه وصايا التوراة كما وردت فى سفر الخروج واللاويين والتثنية . . تقول التوراة :

لا يكن لك آلهة أخرى أمامى .

لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة .

لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا .

أكرم أباك وأمك .

لا تقتل .

لا تزن .

لا تسرق .

لا تشهد على قريبك شهادة الزور .

لا تشته بيت قريبك ولا شيئاً مما لقريبك[2] .

---

(١) من مقال للأستاذ أحمد حسن بمجلة الوعى الإسلامى بعنوان : لماذا الإسلام . عدد صفر ١٣٨٨ هـ .

(٢) سفر الخروج الفصل العشرين .

لا تقبل خبراً كاذباً .

لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر .

لا تحاب مع المسكين فى دعواه[1] .

« افتح يدك لأخيك المسكين والفقير فى أرضك[2] .

« لا تضطهد القريب وتضايقه .

لا تسىء إلى أرملة ما ولا يتيم[3] .

لا ترتكبوا جورا فى القضاء[4] .

إبتعد عن كلام الكذب[5] .

لا تنتقم[6] .

« لا ترتكبوا لا فى القياس ولا فى الوزن ولا فى الكيل[7] .

لا تحقد على أبناء شعبك .

كن قديساً طاهرا .

تحب قريبك كنفسك[8] .

أما تعاليم الإنجيل ووصاياه فقد وردت فى إنجيل متى وهى تقول :

طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات .

---

(١) سفر الخروج ٢٣ : ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) سفر التثنية ١٥ : ١١ .

(٣) سفر الخروج ٢٢ : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) لاويين : ١٩ : ١٥ — (٥) خروج ٢٣ : ٧

(٦) لاويين ١٩ : ١١ — (٧) لاويين ١٩ : ٣٥

(٨) لاويين ١٩ : ١٨

. طوبى للحزانى لأنهم يتعزون .

طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض .

طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون .

طوبى للأتقياء القلب .

طوبى لصانعي السلام .

طوبى للمطرودين من أجل البر .

طوبى للرحماء لأنهم يرحمون .

ليس فحسب « لا تقتل » وإنما لا تغضب من أخيك وتقول له « رقا » أو « يا أحمق » .

فاذا قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك هناك قربانك واذهب أولا إصطلح مع أخيك .

قد سمعتم أنه قيل للقدماء « لا تزن » وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنا بها فى قلبه .

قد سمعتم . . لا تحنث وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة .

سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضكم .

وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم .

إن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل تصنعون ؟

أعط الذى يطلب منك ولا تول ظهرك لمن يريد أن يقترض منك .

احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس .

إن غفرتم لناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوى .

لاتكنزوا لكم كنوزاً على الأرض بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء .

لا يقدر أحد أن يخدمَ سيدين .

لا تهتموا لحياتكم . . انظروا إلى طيور السماء وأبوكم السماوى يقوتها .

لماذا تنظر إلى القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لهـا .

فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم .

أدخلوا من الباب الضيق(١) .

هذه وصايا البوذية واليهودية والمسيحية وكلها تتضاءل أمام وصايا القرآن الذى عرض وصاياه فى أسلوب أخاذ وطريقة فذة وحمل فى ثناياها هذا العرض ما أجمعت عليه رسالات السماء وما ارتضته الأذواق والفطر المستقيمة ولكنه يعرض كل وصية فى موضعها المناسب تارة ويجمعها فى إطارها العظيم تارة أخرى كما هو واضح فى وصايا سورة الأنعام .

ولو أردنا استقصاء الوصايا فى كتاب الله لنقارن بينها وبين كل وصية فى الديانات الثلاث لطال بنا المقام والأمر متروك — إذن — لفطنة القارىء فانه سيجد فى كتاب الله دليلا على تفوق هذا القرآن على كل هذه التعاليم وكما قال الحق جلّ جلاله : وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه(٢) .

نعم أنزل الله التوراة والإنجيل فيهما هدى ونور وأدى كل كتاب منهما مهمة خاصة فى إرشاد قطاع من الإنسانية إلى طريق الله ولكن هذا القرآن

---

(١) كما قال تعالى : فلا أقتحم العقبة . ؟ [البلد ٩٠/ ١١] .

(٢) سورة المائدة ٥/ ٤٨ .

دستور الحياة والأحياء إلى أن تنتهي تلك الحياة أتى بوصاياه كما أتى بكل تعاليمه ومبادئه قفزة في التاريخ البشرى لايدانيه كتاب سابق ولا يصل إلى شأوه وعظمته تشريع آخر .

٥ ـ هذه الوصايا هي الطريق الوحيد لإنقاذ البشرية المعذبة

والإنسانية الحائرة ما أحوجها إلى هذه المبادىء السامية . إنها كالطائر الذي يحاول أن يطير بأحد جناحيه فلا يستطيع . لقد أخلدت إلى الأرض واتبعت أهواءها فكان مصيرها هذا العناء وذلك العذاب والضياع وصدق الله إذ يقول : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون[1] .

لقد وصلت الإنسانية فى تسخيرها للطبيعة وسيطرتها على كثير من أسرار الحياة مبلغاً لم تكن تحلم به ولكنها ــ للأسف ــ تراجعت خطوات قاتلة إلى الوراء فى إيمانها وعقيدتها ونظام حياتها وتركت أمر دنياها فوضى لاتحكمه إلا قوانين البشر تلك التى ثبت ــ بالتجربة ــ قصورها وفسادها بل وضررها الذى أزعج العالم كله ونشر بين جنبيه شقاء وتعاسة فانطلق يبحث عن علاج لأمراضه فى حانات الخمر والدعارة وإرخاء العنان لاشباع الشهوات فاذا بالأمر يزداد خطراً . وذلك أن العالم قد استجاب لنداء الشياطين وسار فى متاهات الباطل فتوزعته السبل ومزقته الأهواء فابتعد عن مصدر النور الإلهي وعاش فى ظلام حالك . ولن يخرج من هذا الظلام أبداً إلا بتطبيق هذه التعاليم والتزام تلك الوصايا فهى جامعة للخير كله وأساس الإصلاح العالمى الذى عاشته

---

(١) سورة الأعراف ١٧٥/٧ ــ ١٧٧

الإنسانية دهراً طويلا حين عرفت هذا الكتاب العظيم « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض »(١).

« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما »(٢).

٦ — الأمة الإسلامية مثال فريد ؟

ومالنا نبعد بعيداً وهذه الجاهلية التى كانت تحياها الأسرة العالمية : من أنقذها منها ؟

وكيف تحولت هذه البلاد فى أنحاء الأرض من عبدة أوثان وعبدة بشر وكواكب إلى عبيد لله وحده ؟

وكيف عزت هذه البلاد وارتقت مجتمعاتها وسمت فى حضارتها ومدنيتها إلى مكانة رفيعة هى حضارة هذا الدين ومدنية هذا الإسلام !!

وأين هذه الأمة التى كانت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ؟؟

إن الأمة التى حملت راية الإسلام وتمثلت هذه الوصايا فى حسها ووجدانها وجعلتها دستوراً لحياتها هزت عرش كسرى وقيصر فخرعرشهما تحت أقدامهما صاغرا مستسلما فأنقذت هذه الشعوب كلها فى الشرق والغرب من ظلام الباطل إلى نور الحق المبين وتركت أمم الأرض تشعر بالحرية والكرامة وتستظل بظل هذا الدين .. وأمتنا التى تشرفت بالانتساب لهذا الإسلام يمكن

---

(١) سورة ابراهيم ١٤ / ١ ، ٢ .   (٢) سورة النساء ٤ / ١٧٣ ، ١٧٤ .

أن تقود ركب الإنسانية الحائر وتدله على الطريق إذا ماسارت هذه الأمة على المنهج الأول وتلاقت مع كتاب الله فى شوق وحنين فلامس منها شغاف القلوب فبعث فيها الأرواح المتعطشة إلى حياة إسلامية نظيفة فتعبد الله ولا تذل لسواه وتسد منافذ الفواحش فلا تقربها أبدا ، وتسودها عاطفة التراحم والتواصل والأخاء وتلتزم بالعدالة فى القول والعمل . والوفاء بكل ما فى هذا الوفاء من معان خالدة وتعتصم بصراط الله المستقيم فلا تحيد عنه .. وحينئذ تنطلق من عقالها وتنهض من كبوتها وتتولى زمام البشرية فتهديها إلى ربها وتصل بها إلى شاطىء الأمان والسلام .

وهذا واجبها فان قامت به ظفرت بالسعادة والفضل وإن كانت الأخرى فانا نسأل الله السلامة والعافية :

« يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » [1] .

فاللهم هب لنا من هذا الفضل . واشرح الصدور للعمل بكتابك فان ذلك طريق النجاة وأنت ياربى على ماتشاء قدير وأنت بالإجابة جدير .

وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ...

---

(١) سورة المائدة ٥ / ٥٤ .

أهم المراجع

أولا : القرآن الكريم .

ثانياً : تفسير القرآن الكريم .

١ — تفسير أبي السعود : المسمي : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود : محمد بن محمد العمادى ٨٩٦ — ٩٥١هـ ط صبيح .

٢ — تفسير البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل — وبهامشة تفسير الجلالين لعبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى سنة ٧٩١ هـ . ط الحلبي — الطبعة الأولى ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م .

٣ — تفسير ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء : اسماعيل بن كثير القرشي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . ط دار إحياء الكتب العربية .

٤ — تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل أى القرآن :

لأبي جعفر : محمد بن جرير الطبرى ٢٢٤ — ٣١٠ هـ — حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر — ط دار المعارف بمصر .

٥ — القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي :

ط دار الكتب ٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م — الطبعة الثانية .

٦ — حاشية الجمل : الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية تأليف سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل ط حجازى بالقاهرة وبالهامش كتابان : تفسير الجلالين وإملاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات فى جميع القران .

٧ — الكشاف : عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل :

لأبى القاسم جار الله : محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٤٦٧ — ٥٣٨ هـ ط عيسى الحلبى ١٣٦٧ هـ — ١٧٤٨ م

٨ — مفاتيح الغيب للامام فخر الدين : محمد الرازى . ط الأولى بالمطبعة البهية المصرية ١٩٣٨ م .

ثالثاً — مراجع عامة :

٩ — إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ط الحلبى .

١٠ — الأربعين حديثا النووية بشرح النبراوى ط الزينى للطباعة والنشر.

١١ — الإسلام وتنظيم العلاقات الإنسانية للاستاذ محمد اللافى شرعان ط الأولى . دار الطباعة المحمدية .

١٢ — الاصلاح المنشود للأسرة للأستاذ الشرباصي الحسين ط الثانية . شركة الطباعة الفنية المتحدة .

١٣ — حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالى ط الأولى ١٩٦٣ بمطبعة السعادة .

١٤ — خلق المسلم : للشيخ محمد الغزالى ط الرابعة طبع ونشر دار الكتب الحديثة بمصر .

١٥ — رياض الصالحين للنووى ط صبيح .

١٦ — هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ط السادسة ١٩٥٨ — المطبعة العثمانية المصرية .

١٧ — الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام للعقاد ط دار الهلال .

رابعاً — مراجع لغوية :

١٨ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضع محمد فؤاد عبد الباقى. ط الشعب.

١٩ — القاموس المحيط : للفيروزابادى . ط الأولى ، بالمطبعة الحسينية المصرية ١٣٣٠ هـ .

٢٠ — مختار الصحاح : للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى من كتاب الصحاح للامام أبى نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى — ط المطبعة الأميرية ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ .

(تم بحمد الله)

وقعت بعض الأخطاء أثناء الطبع

أرجو تصحيحها قبل قراءة هذا الكتاب

ض	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٢١	الفوز العظيم	الفوز المبين
٤	٢٤	فهو الحكمة	صاحب الحكمة
٥	١٥	أن أنزل	أن الذى أنزل
٥	١٨	وهم كاذبون اعائهم فلوردوا	وهم كاذبون فى إدعائهم ولو ردوا
٦	١	تفعل	نعقل
٦	١٥	رتب	رتيب
٧	٦	الوجدانية	الوحدانية
٧	٢٣	وجاد به	وجاء به
٩	٩	يحسه	يحثه
١٢	٧	شفاعة	شناعة
١٣	٧	نعم مأمور	نعم هو مأمور
١٣	١٨	إن أطعمتموهم	وإن أطعتموهم
١٤	٤	يعقلون	يعلقون
١٥	٧	ومن ورائه	ومن وراءه
١٥	٢٣	ومن الآيات	مع الآيات
١٧	١٩	كل ظفر	كل ذى ظفر
١٨	١٢	قضيتان لا ينفصلان	قضيتان لا تنفصلان
١٩	٣	بهذا الفصل	بهذا لنصل
١٩	١٦	عليهم	تميلهم
١٩	١٧	ويهدوهم	ويهددهم
٢٧	٨	معلق	متعلق
٢٨	١٧	فجمعة	فجمعت
٢٩	٥	تقضى	تقتضي
٣٣	٦	وشركة	وشركه
٣٦	١٦	بالأمر	بالأمن

ص	السطر	الخطأ	الصواب
٣٨	٣	ينبت به	ينبت لـكم به
٣٨	٢٤	الرسول	الرسل
٣٩	١٧	أوصينا	أوحينا
٤٠	١٠	المسيح بن مريم	المسيح عيسى بن مريم
٤١	١٨	أورردة	أورده
٤٢	١٠	لشركائناً	لشركائنا
٤٢	٢٠	سعتها	سفهاً
٤٣	٧	يدعوا	يدعو
٤٣	٩	لأنذكم	لأنذركم
٤٤	٥	تشرك	لا تشرك
٤٥	٣	(٢)	(١)
٤٥	٤	الفاسقين »	الفاسقين » (٢)
٤٥	١٤	فنزل	نترك
٤٥	١٦	تشمل	تشتمل
٤٦	٤	مطلب	تطلب
٤٦	٢٢	التبسيم	التسليم
٤٧	٩	إذا	إذ
٤٨	٥	المسترعون	المشترعون
٤٨	٦	أهوائهم	أهواءهم
٥٠	٣	بفتح الباء وبضم	بفتح الياء وضم
٥٠	٧	صيغة	صبغة
٥٠	١٤	ما وصلنا	ماواصلنا
٥٩	١٥	الحازم	الجازم
٥٩	٢١	الزلة	الذلة
٦١	١٥	تمنى	تحتي
٦٤	٧	خمار .. أمل	حمار .. مل
٦٩	٢	الأنبياء	الأبناء
٧١	١٧	الأبناء	الذكور
٧١	١٨	للأبناء	للذكور
٧٢	٩	وإذا رزق	وإذا كان رزق

ص	السطر	الخطأ	الصواب
٧٢	١١	مرضية	مريضة
٧٣	١	لنتكلم	لقتلهم
٧٣	٧	ومشهورة	وشهوده
٧٤	٥	كخليفة لله على هذه	كخليفة فى هذه
٧٤	١٩	نرزقكم	نرزقك
٧٥	٦	البخلاء بما	البخلاء بخلهم بما
٨٠	٢٠	منهيا	ليس منهيا
٨٤	٤	أضحنا السمع	أصخنا السمع
٨٧	١٦	يشتد قيمه	يشتد قبحه
٨٨	٥	ومن يعصي	ومن يعص
٨٨	١١	كما سافه	كما ساقه
٨٨	١٢	الأول	الأولى
٨٨	١٦	لفاحشة	بفاحشة
٨٩	٣ هـ	سورة النساء ٤/٢٥	تفسير أبى السعود جـ٢ ص١٤٦
٩٠	١٨	وأكثر	وأكد
٩١	٦	هل تربت	هى التي تربت
٩٥	٤	وحفظه	وحفظته
٩٨	١٠	والنصال	والفصال
٩٩	١	الجهاذ	ذلك .. الجهاد
٩٩	٥	من مساءلتها	من مسألتها
١٠١	٤	ويرفع	ويرتع
١٠٧	١١	ويقتل	ويقتتل
١٠٧	١٦	قلنا	فلنا
١٠٧	١٩	أفراده	أفرده
١٠٨	١	وملائكة	وملائكته
١٠٨	٩	إلا حالي	إلا حال
١٠٩	٥	وزوجة	وزوجه
١١١	١٨	وتشد الرحال	وتشد إليها
١١٢	٧	أحبه	أحسبه
١١٢	٩	كناراً	كفاراً

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١١٢	١٧	يزبط	يربط
١١٣	١٣	شعورا	شعور
١١٥	١٧	حتي	حين
١١٥	١٩	لم تعصى	لم تعص
١١٨	٦	(١) فى الهامش أبو السعود الخ	فى الهامش (١) سورة المائدة ٥/٣٣
١١٨	١٥	الأمن	الأمن (٢)
١١٨	٢٢	تتقون ( )	تتقون (٣)
١١٨	٢٣	(١) أبو السعود	(٢) أبو السعود .
١١٨	٢٣	(٢) سورة البقرة	(٣) سورة البقرة.
١١٩	١٣	شيء	شيئا
١٢٠	٧	السلم	المسلم
١٢١	١٧	معى	مع
١٢٢	٨	مجد	مجداً
١٢٢	١٢	رسوله	لرسوله
١٢٣	١٦	مصدقا	مصداقا
١٢٤	٨	ويبلغون .	ويبلغوا
١٢٤	١٢	الفارسية	القادسية
١٣٠	٤	كل كمحمد	كل يتيم كمحمد
١٣٠	١٣	أنه	على أنه
١٣١	٨	يتيمة	يتيمته
١٣٤	٢	فيقطع	فيطمع
١٣٥	٢٢	متسعا	متسع
١٣٧	١٩	المولى	الولي
١٣٩	٩	تغير	تفيد
١٣٩	١٨	الأخير	الأجير
١٤٠	٨	كأنك	كآنك
١٤٠	٩	واحدة	واجده
١٤١	٦	يتيمة	يتمه
١٤٢	٣	يشأ ويبعثر	يشاء ويبعث
١٤٢	٥	العدل	العدول

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٣	١٠	وليحسبن	وليخش
١٤٦	١	أم	أو
١٤٧	٩	فلا تقهر	فلا تقهر (٣)
١٤٧	١٠	المسكين(٣) »	المسكين »(٤)
١٥٣	١٨	لقول	يقول
١٥٧	٩	وتعدوا	وقعدوا
١٥٧	٢٠	نصحا	نصح
١٥٨	٧	يقنوا	يغنوا
١٥٩	١٣	تطيب نفسه	تطيب به نفسه
١٥٩	١٥	عن تطيب	عن أن تطيب
١٦٤	٨	الحشود الزيادة	الحشو والزيادة
١٦٨	١	ويستهل	ويستسهل
١٦٩	١	وذلك	لذلك
١٦٩	٥	كذبا	كذابا
١٦٩	١٨	وعجزة	وعجزه
١٧٠	٩	الآمانات	الأمانات
١٧٢	١٢	للنصرانى	النصرانى
١٧٩	٢	حقاً	حقها
١٨٢	٩	يتذكرون	يتذكر
١٨٦	٦	إلى	تحتاج إلى
١٨٦	٩	بعدهم	بعهدهم
١٩٩	٢٢	الأيمان	الإيمان
٢٠٢	١٣	عملي	على
٢٠٨	٣	لا يتزون	لا يتذوق
٢٠٨	١٧	إلى قلة	إلا قلة
٢١٠	٩	يدعوا	يدعو
٢١٣	٦	لا يعد	لا يعد
٢٢٠	٤	للاتقياء	لأتقياء
٢٢٠	١٩	قول	تول